رسالة التوحيد

يعني

ترجمة كتاب « تقوية الايمان » المشهور إلى العربية

للعلامة الشيخ إسماعيل بن عبد الغنى الدهلوى الشهيد

تعريب — تعليق — تقديم

أبو الحسن علي الحسني الندوي

طبعت بطلب من

فضيلة الشيخ الكبير العلامة محمد زكريا بن يحيى الكاندهلوي

ملتزم النشر و التوزيع

المكتبة اليحيوية سهارنفور (الهند)

مطبعة ندوة العلماء لكهنؤ

١٣٩٤هـ — ١٩٧٤

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة المترجم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، و خاتم النبيين ، و إمام المتقين ، قائد الغر المحجلين ، محمد وآله و صحبه الغر الميامين ، و من تبعهم باحسان إلى يوم الدين ، من الأئمة المهديين ، و الدعاة المصلحين ، المجددين لهذا الدين ، الذين لم يزالوا ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، و تأويل الجاهلين ، جزاهم الله عن الاسلام والمسلمين ، أفضل ما جزى العلماء الراسخين ، النائبين عن الأنبياء و المرسلين .

أما بعد ! فقد كنا نشعر بمسيس الحاجة منذ زمن طويل بالحاجة إلى نشر كتاب واضح المنهج ، صريح العبارة ، مشرق الديباجة ، سهل المتناول ، ينم عن إخلاص مؤلفه ، و صدق لهجته ، وتوجع قلبه مما يرى الناس عليه فى عصره من الجهل لغاية الخلق ، و بعثة الأنبياء و الرسل أجمعين ، من إخلاص الدين لله ، وإفراد العبادة له ، و الخوف و الرجاء منه ، و الاستغاثة به ، والتضرع إليه ، و لما كان يرى من انتشار العقائد و العادات ، التى جاءت

الأديان السماوية لمحوها ، وأنزلت الكتب و بعثت الرسل لمحاربتها و التخليص منها ، حتى أصبح الناس من ذلك فى جاهلية جهلاء ، و فتنة عمياء ، و احتاجوا إلى دعوة صارخـــة سافرة إلى الدين الخالص ، و الحنيفية السمحة .

و قد شرح الله صدر بقية السلف الشيخ محمـــد زكريا الكاندهلوى فى مدينة الرسول ﷺ فى شهر ذى الحجة ١٣٩٣ﻫ لنقل كتاب « تقوية الايمان » للامام المجاهد الداعى إلى الله ، الشهيد فى سبيل الله ، الشيخ إسماعيل بن عبد الغنى بن أحمد ولى الله بن عبدالرحيم العمرى الدهلوى « ش١٢٤٦ﻫ » ، فانه كتاب أصبح شعاراً و علماً للدعوة إلى التوحيد ، و بيان الحق الصريح ، و قد نفع الله به خلائق فى شبه القـــارة الهنـدية لا يحصيهم إلا من أحصى رمل عالج و حصى البطحاء ، وقد بلغ عددهم إلى ملايين من غير شك .

و قد صدر هذا الكتاب عن قلب جريح متقطع بمشاهدة ما كان عليه المسلمون فى ذلك اليوم من بعد عن التعاليم الاسلامية ، و خضوع للوثنية الهندية ، و تمسك بالعادات الجاهلية ، و قد زاد فى تأثيره ، و قبوله دموع عين باكية على الاسـلام ، و دم زكى أريق فى سبيل إحياء هذا الدين ، وإدالته من الجاهلية ، وتأسيس

حكومة شرعية تقوم على منهاج الكتاب و السنة ، و يكون الدين كله لله .

و قد قرن رحمه الله الدعاء بالدعوة ، و الجهد بالجهاد ، و الشهادة للحق بالشهادة فى الحق ، وذلك لباب التوحيد ، و غاية الاخلاص ، و كمال الصدق ، و تمام الوفاء ، وصدق الله العظيم ، « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ، و منهم من ينتظر و ما بدلوا تبديلا (١) » فكان لكتابه من القبول و التأثير ، و الذيوع و الانتشار ، ما لا يكون إلا لكتابات كبار المخلصين ، و العلماء العاملين ، و الدعاة المجددين .

وسر قوة الكتاب فى صراحته وتشخيصه الأدواء ، ومظاهر الشرك ، ومواضع الانزلاق ، و أنه يضرب على الوتر الحساس ، و يصيب ضعف الاعتقاد ، وما فتن به المسلمون فى العهد الأخير، من الغلو و التقديس و التعظيم ، وتقليد الأمم الوثنية ، والعادات الجاهلية ، فى صميمه ، و قد اعتاد الناس أن لا يفزعوا للواعظ والخطب التى تلقى على المنابر ، أوالبحوث العلمية التى تتناول موضوع التوحيد و الشرك بصفة إجمالية عامة ، إذا لم تتعرض للأمراض التى يعانونها ، و الأخطاء التى يرتكبونها ، و للعادات التى لايمكنهم

---

(٢) سورة الأحزاب الآية ٢٣ .

القطام عنها ، و الأشخاص و الأماكن و الشعائر التى يغلون فيها ، فيتجاهلون كل ذلك ، ويتظاهرون بأن الواعظ أو الكاتب لايعنيهم ، و إنما يعنى المشركين القدامى ، وعباد الأوثان فى الجاهلية الأولى ، أما إذا تعرض هذا الكاتب أو الواعظ لواقع حياتهم ، و وضع يده على عللهم و أسقامهم ، و حدد مواضع فتنتهم ، لم يسعهم أن يتغافلوا عنه ، فأعلنوا الحرب عليه ، ونادوا بعدائه ، و هذا شأن الداعى المخلص الذى ملكته الفكرة ، و استحوذ عليه الشعور ، و تذوق القرآن ، و منهج الأنبياء فى دعوتهم تذوقاً حقيقياً ، فانه لا يبالى أ رضى الناس أم سخطوا ، إن همه الوحيد أن يبلغ رسالة القرآن ، و يرضى ربه ، و يريح ضميره ، و يبرئ ذمته .

و يحسن هنا أن أنقل ما كتبته فى كتابى « رجال الفكر و الدعوة فى الاسلام » و أنا أتكلم عن سر تأثير الامام الحسن البصرى فى المجتمع الاسلامى فى مستهل القرن الثانى الهجرى ، ونفوذه فى القلوب و العقول ، وإن المجتمع لم يستطع أن يتجاهله ، وأن يمر به مر الكرام ، قلت : «إنه ضرب على الوتر الحساس ، و نزل فى أعماق المجتمع ، و وصف أمراضه ، و انتقد انتقاد الحكيم الرفيق ، و الناصح الشفيق ، لقد كان عصره يغص بالدعاة و الوعاظ ، و لكن المجتمع لم يخضع خضوعه للحسن ، لأنه كان

يمس قلبه ، و ينزل فى صميم الحياة ، و يعارض التيار (١) » .

لذلك كله وقع اختيارنا على نقل معانى هـذا الكتاب ، و محتوياته إلى لغة الضاد فى أسلوب عصرى رشيق ، و تعبير سهل سائغ .

و قد طلب منا الشيخ الجليل محمد زكريا السابق ذكره ، أن يكون بداية هذا العمل فى مسجد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، و قد يسر الله ذلك فى سلخ ذى الحجة ١٣٩٣ھ فى ساعة مباركة قبل زوال الشمس يوم الأربعاء ، فكتبت السطور الأولى من المقدمة فى مكان بين باب الرحمة وباب جبرئيل ، مكتظ بالحجاج الوافدين ؛ و المشتغلين بالذكر و التسبيح ، و الصلاة على النبى ﷺ ، و فى جو من السكينة ، و الخشوع و الحب ، ونحمد الله على أن كانت فاتحة هذا العمل فى هذا المسجد العظيم ، الذى انبثق منه هذا النور و انطلقت موجة التوحيد ، و الدعوة إلى الله إلى أنحاء العالم ، فبددت الظلام ، و غمرت القلوب بفيض من الايمان ، و نور التوحيد ، و طهرت النفوس ، و أشرقت الأرض بنور ربها ، و تمت نعمة الله على عباده .

و يسر الله إتمام هذا العمل ، و القيام به بقدر الطاقة فى

(١) ص ٦٣ — ٦٤ مطبعة جامعة دمشق .

مدة قريبة ، و أيام معدودة ، و الحمـــد لله الذى بعزته و جلاله
تتم الصالحات .

ورأينا أن نلحق بالكتاب ترجمة مؤلفه العلامة الشيخ إسماعيل
ابن عبـد الغنى بن ولى الله الدهلوى ، مقتبسة من المجلد السابـــع
لكتاب « نزهة الخواطر و بهجة المسامع والنواظر » للعلامة السيد
عبد الحى الحسنى ، ليطلع القارئ على علو كعب المؤلف فى العلوم
الدينية ، و رسوخ قدمه فى الدين ، و حسن بلائه فى الاسلام ،
و غيرته على نقاء العقيدة و أصالتها ، و قد أجاد من قال : «إن
ترجمة المؤلف نسب الكتاب » ولذلك أكثر المؤلفون فى الاسلام
من تأليف كتب الطبقات والتراجم . والسير و الأخبار، وأجادوا
فى ذلك و أفادوا ، و وضعنا عناوين جانبية للكتاب ، و تناولنا
بعض الكلمات و العادات المحليـــة ، و الأعلام التى تختص بالهند
بالشرح و الايضاح و التعريف ، حتى يسهل على القارئ العربى
الكريم ، فهم الكتاب و التذوق به .

و نقلنا بعض المقتطفات من كلام بعض أعلام هـــذه الأمة
وأئمتها تأييداً لبعض ما ورد فى هذا الكتاب من تعبيرات وعبارات
لم يألفها كثير من الناس لشيوع الأساليب الاصلاحيـــة فى العهد

الأخير ، التى تعتمد على مجـاراة العواطف ، و مسايرة المعروف المألوف ، إيثاراً لتوسيع الدعوة على تعميقها ، وتبليغ العقيدة على ترسيخها ، و جلب المنفعة على دفع المضرة ، و تفادياً من وحشة الناس ، و سخط العامة ، و لكل وجهة هو موليها .

ويعرف القارئ العربى من خلال هذا الكتاب ، وما ورد فيه من ذكر أنواع الانحراف و الضلال ، و تقليـد الأكثرية من سكان الهند ، مدى تغلل الحضارة الهندية ، و العادات الجاهليـة و التقاليد الوطنية فى أحشاء المجتمع الاسلامى الهندى ، و خضوع المسلمين فى هذه البلاد ، للفلسفة الهندية البرهمية ، و الهند — كما يعرف المطلع على التاريخ القديم — من أعرق بلاد الله فى الوثنية فهى فيها قديمة وأصيلة ، إذاكانت فى كثير من البلاد جديدة ودخيلة ، و قد عجنت فلسفتها وحضارتها ، و آدابها ، وعلم الفلك ، والعلوم الرياضية ، والتقويم ، فضلا عن الديانات ، بهذه الوثنية ، فهى أرض الآلهة والالاهات ، وأرض الأساطير والروايات ، وأرض الأعياد و المواسم ، و المهرجانات و المآتم ، تذكاراً لحوادث تاريخيـة دينية ، و أبطال قومية خرافيـة ، أثر كل ذلك فى حياة المسلمين و عاداتهم تأثيراً عميقاً ، و غم عليهم الأمر على مـدى الأيام ، و التبس الحق بالباطل بتهاون الحكام و السلاطين ، و قلة انتشار

علم الحديث ، وكتب السنة الصحيحة، ورواجها فى العهود الأولى ، و شدة اختلاط المسلمين بجيرانهم فى كل مدينة و قرية ، و حى وزقاق ، حتى قيض الله للصدع بالدعوة ، وتمييز الحق من الباطل ، والقشور من اللباب رجالا من علماء الدين ، و الدعاة المرشدين ، كان فى مقدمتهم الامام الشيخ أحمد بن عبد الأحـــد السرهندى ، و خلفاؤه ، و بعده حكيم الاسلام الشيخ ولى الله بن عبد الرحيم الدهلوى وأسرته ، ومن تلمذ عليها من الفقهاء و المحدثين ، والعلماء الراسخين .

وكان ذلك من أقوى الأسباب التى حملت مؤلف هذا الكتاب - و قد نشأ فى بيئة هندية خالصة ، و فى مركز هذه الحضارة - على أن يكون صريح العبارة ، قوى العارضة ، مرهف الحس فى هذا الموضوع ، لا يحتفل بالنقد و اللائمة ، و لا يبـــالى بسخط الخاصة و العامة ، و لو طالت به الحياة ، و وجد فرصة للدعوة والبقاء فى الهند ، لأخذ الأمر بالتدريج ، و مشى الهوينا ، ولكنه كان مضطراً إلى مغادرة الهند ، وكان حادى الشوق يحدو به إلى الجهاد ، و الشهادة فى سبيل الله ، فألف هـــذا الكتاب إتماماً للحجة ، و براءة للذمة ، وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون .

وليس الأمر مقصوراً على الهند التى بعدت عن مهد الاسلام

و مهبط الوحى ، و دخلها الاسلام عن طريق بلاد العجم ، وقد فقد الشئ الكثير من قوته وجدته ، بل تبلبلت العقيدة الاسلامية ، واختلطت بشئ كثير من البدع والضلالات فى العواصم الاسلامية ، و بلاد العرب فى القرن السابع والثامن الهجريين ، بتأثير الشعوب غير العربية التى دخلت فى الاسلام جديدة ، وحملت معها رواسب كثيرة من دياناتها وعاداتها ، واختلاط المسلمين مع غير المسلمين والعجم ، و نفوذ الحكومة الباطنية و الاسماعيلية فى مصر والشام وتأثيرهما ، و انتشار تعليمات بعض المتصوفين الجهلة ، و من قرأ كتابى شيخ الاسلام ابن تيمية « الرد على البكرى » و « الرد على الأخنائى » عرف الشئ الكثير من غلو الجهال فى الأئمة والمشايخ، والأولياء والصالحين ، واعتقاداتهم الفاسدة ، وعاداتهم الجاهلية ، ولا يزال لهذا الغلو و التعظيم بغير ما أمر الله به ، و شرع ما لم يأذن به الله ، آثار باقية فى بلاد المسلمين والعرب ، تستوجب دعوة قوية صريحة ، حكيمة بليغة ، لذلك ليست فائدة هذا الكتاب محدودة فى الهند ، بل تعم جميع الأوساط التى استطاع الشيطان أن يتسرب إليها ، و انتشر فيها من العقائد والعادات ما لا يرضاها الاسلام ، و لا يقرها الشرع ، و لا يقبلها ضمير المسلم الواعى .

و قد أسمينا هذه الترجمة بـ « رسالة التوحيد للعلامة الشيخ

إسماعيل الشهيد» لأن هذا الاسم أدل على مسماه، وقد تولى المؤلف نقل كتابه الذى وضعه بالعربية ، وسماه بـ « رد الاشراك» و قد طارت العنقاء بهذا الأصل العربى و فقد ، و تسميتنا أقرب إلى تسميته الأصلية .

و الله نسأل أن ينفع بهذه الترجمة كما نفع بالأصل، ويشرح بها صدور المؤمنين ، و على الله قصد السبيل .

أبو الحسن على الحسنى الندوى

غرة ربيع الأول ١٣٩٤هـ

ترجمة المؤلف

الشيخ العالم الكبير ، العلامة المجاهد فى سبيل الله ، الشهيد إسماعيل بن عبد الغنى بن ولى الله بن عبد الرحيم العمرى الدهلوى ، أحد أفراد الدنيا فى الذكاء ، والفطنة ، والشهامة ، وقوة النفس ، و الصلابة فى الدين .

ولد بدهلى لاثنتى عشرة من ربيع الثانى سنة ثلاث و تسعين و مأة و ألف ، وتوفى والده فى صباه ، فتربى فى مهد عمه الشيخ عبد القادر بن ولى الله الدهلوى ، و قرأ عليه الكتب الدرسية ، واستفاض عن عميه الشيخ رفيع الدين ، والشيخ عبد العزيز أيضاً ، و لازمهم مدة طويلة ، وصار بحراً زاخراً فى المعقول والمنقول ، ثم لازم السيد الامام أحمد بن عرفان الشهيد البريلوى ، و أخذ عنه الطريقة ، وسافر معه إلى الحرمين الشريفين سنة سبع وثلاثين و مأتين و ألف ، فحج و زار ، و رجع معه إلى الهند ، وساح البلاد ، و القرى بأمره سنتين ، فانتفع به خلق لا يحصون بحد وعد ، ثم سافر معه إلى الحدود سنة إحدى و أربعين و مأتين و ألف ، فجاهد معه فى سبيل الله ، و كان كالوزير للامام ، يجهز الجيوش ، ويقتحم المعارك العظيمة بنفسه حتى استشهد فى «بالاكوت» من أرض « ياغستان » .

و كان نادرة من نوادر الزمان، وبديعة من بدائعه الحسان، مقبلا على الله بقلبه و قالبه، مشتغلا بالافادة، و العبادة، مع تواضع وحسن أخلاق، وكرم وعفاف، و شهامة نفس وصلابة دين، و حسن محاضرة، و قوة معارضة، و فصاحة و رجاحة، فاذا جالسه منحرف الأخلاق أو من له فى المسائل الدينية بعض شقاق، جاء من سحر بيانه بما يؤلف بين الماء و النار، و يجمع بين الضب و النون، فلا يفارقه إلا وهو عنه راض، وقد وقع له مع أهل عصره قلاقل و زلازل، و صار أمره أحدوثة، و جرت فتن عديدة فى حياته و بعد مماته، و الناس قسمان فى شأنه، فبعض منهم مقصر به عن المقدار الذى يستحقه، بل يرميه بعظائم الأمور، و بعض آخر يبالغ فى وصفه، و يتعصب له كما يتعصب أهل القسم الأول، وهذه قاعدة مطردة فى كل من يفوق أهل عصره فى أمر.

قال الشيخ محسن بن يحيي الترهتى فى « اليانع الجنى » : إنه كان أشدهم فى دين الله، و أحفظهم للسنة، يغضب لها، ويندب إليها، و يشنع على البدع و أهلها ».

و قال صديق بن الحسن القنوجى فى « الحطة بذكر الصحاح الستة » فى ذكر الشيخ ولى الله بن عبد الرحيم الدهلوى : « إن

ابن ابنه المولوى محمد إسماعيل الشهيد، اقتفى أثر جده فى قوله وفعله جميعاً، و تمم ما ابتدأه جده، وأدى ما كان عليه، وبقى ما كان له، و الله تعالى مجازيه على صوالح الأعمال، وقواطع الأقوال، و صحاح الأحوال، و لم يكن ليخترع طريقاً جديداً فى الاسلام، كما يزعم الجهال، و قد قال الله تعالى: « ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب و الحكم و النبوة، ثم يقول للناس كونوا عباداً لى من دون الله و لكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب، و بما كنتم تدرسون » . . . . و هو رحمه الله تعالى أحيا كثيراً من السنن المماتات، وأمات عظيماً من الأشراك، والمحدثات، حتى نال درجة الشهادة العليا، وفاز من بين أقرانه بالقدح المعلى، و بلغ منتهى أمله، و أقصى أجله.

مصنفاته:

وأما مصنفاته فهى عديدة، أحسنها كتابه « الصراط المستقيم » بالفارسى، جمع فيه ما صح عن شيخه السيد الامام قولا و فعلا، و فيه بابان من إنشاء صاحبه الشيخ عبد الحى بن هبة الله الصديقى البرهانوى، ومنها « إيضاح الحق الصريح فى أحكام الميت والضريح» فى بيان حقيقة السنة و البدعة، و منها « منصب إمامة » فى تحقيق منصب النبوة و الامامة، وهو مما لم يسبق إليه، و منها رسالة له

فى « مبحث إمكان النظير وامتناع النظير » كلها بالفارسية ، ومنها مختصر له بالعربى فى أصول الفقه ، و منها رسالة له بالعربيـــة فى « رد الاشراك و البدع » رتبها على بابين ، و منها « تنوير العينين فى إثبات رفع اليدين » بالعربية ، و منها « سلك نور » مزدوجة له بالهندية ، و منها « تقوية الايمان » كتاب مشهور له بالهندى ، وهو ترجمة الباب الأول من رسالة فى « رد الاشراك » [ومنها كتاب « عبقات » فى الفلسفة والحكمة، تجلى فيها ذكاؤه ، واقتداره على هذا العلم (١)] .

وقال أحمد بن محمد المتقى الدهلوى (٢) فى «آثار الصناديد»: « إن له رسالة فى المنطق ، ادعى فيها أن الشكل الرابع من أجلى البديهيات ، و الشكل الأول خلافه ، وأقام على ذلك الادعاء من البراهين ما لم يندفع ، ولم يجترئ على دفعها أحد من معاصريه» .

والشيخ إسماعيل قتل فى سبيل الله لست ليال بقين من ذى القعدة سنة ست و أربعين و مأتين وألف بمعركة « بالاكوت » ، وقبره ظاهر مشهور بها (٣) .

---

(١) من زيادة مترجم هذا الـكتاب .

(٢) هو السيد أحمد خان مؤسس الجامعة الاسلامية بعلى كره الهند .

(٣) ملتقطاً من (نزهة الخواطر وبهجة المسامع و النواظر) الجزء السابع للعلامة السيد عبد الحى الحسنى البريلوى رحمه الله تعالى .

مقدمة الكتاب

خطبة الكتاب :

يا رب لك ألف ألف حمد و شكر على ما أنعمت به علينا من نعم لا تعد و لا تحصى ، و على ما هديتنا إلى الدين القويم ، و الصراط المستقيم ، و أرشدتنا إلى الدين الخالص ، و التوحيد النقى ، و خرطتنا فى سلك أمة نبيك و حبيبك محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وبعثت فينا رغبة فى تعلم هديه ، وألهمتنا حب خلفائه الذين يقودون إلى مسالكه ، و يهدون بالحق و به كانوا يعدلون ، اللهم فصل و سلم على حبيبك ، و آله وأصحابه ، و خلفائه ألف ألف صلاة وسلام ، وارحم أتباعهم ، و أشركنا معهم ، وأحينا على طريقهم ما عشنا ، و توفنا عليه إذا أمتنا ، و احشرنا فى زمرتهم إذا بعثتنا .

قوام العبودية تصحيح العقيدة و الايمان :

أما بعد ! فاعلموا رحمكم الله ، أن البشر كلهم عبيد لله ،

و وظيفة العبد وقيمته أن يقوم بالعبادة ، فالذى لا يقوم بالعبادة، و لا يؤدى وظيفته فقد ثار على فطرته ، و فقد قيمته ، و قوام العبودية تصحيح العقيدة و الايمان ، فمن تطرق إلى عقيدته خلل ، أو تعرض إيمانه لفساد لم تقبل منه عبادة ، و لم يصح له عمل ، و من صحت عقيدته ، و استقام إيمانه كان القليل من عمله كثيراً، ومن هنا وجب على كل إنسان أن لايدخر وسعاً فى تصحيح إيمانه ، و أن يكون الحصول عليه ، و الاستيثاق منه غاية أمله ، و نهاية سؤله ، لا يعدل به شيئاً ، ولا يتأخر فيه دقيقة .

و قد سلك الناس فى هذا العصر فى الدين طرائق قدداً ، وتشعبوا شعباً ، فمنهم من يتمسك بعادات الأولين وتقاليد السابقين ، و يعض عليها بالنواجذ ، و منهم من يحتج بحكايات الصالحين ، و أساطير الأولين ، و منهم من يتشبث بكلام من تسمى بالعلماء ، و امتاز بتشدق اللسان وحدة الذهن ، و منهم من يركض ركائب العقل فى هذا الميدان ، و يرخي لها العنان (١) .

و كان الأفضل الأعدل أن يرد الانسان كل ذلك إلى الله

---

(١) مع أن العقائد و الشرائع لا تقوم على العقل و القياس . و لا ينفع فيها الذكاء و حدة الذهن ، إن مصدرها الوحى و الالهام ، و تعليمات الأنبياء و الرسل عليهم الصلاة و السلام (المترجم) .

و رسوله ، فيصدر عمـــا ثبت عنهما ، و يتحاكم إليه ، و يتخذه بياناً شافياً ، وحكما قاطعاً ، فيقبل من قصص المشايخ و الصالحين ، و من كلام العلماء و الوعاظ و المـــذكرين ، ما وافق الأصول و النصوص ، و ينبـذ من الكلام و الأحاديث ، و من العادات و التقاليد ما خالفها .

تسويلات الشيطان فى الصد عن القرآن :

وأما ما اشتهر فى العوام أن كلام الله ورسوله من الغموض و الدقة بمكان لا يفهمه فيه الناس ، و يحتاجون فى فهمه إلى علم غزير ، و لا قبل لنا بفهم القرآن و الحديث ، أما العمل بمقتضاه و تطبيقه فلا ينوه به إلا خاصة الخاصة من الذين سمت همتهم ، و تزكت نفوسهم من الزهاد و العباد ، ولا مطمع لنا فى ذلك ، و حسبنا أن نفهم كلام أمثالنا ، و نهتدى بهديهم ، و نمضى على ما درج عليه آباؤنا ، و عامة أهل بلادنا .

فيعرف الخبـــير أنه كلام لا نصيب له من الصحـة ، لأن الله سبحانه و تعالى يصف كتـــابه المجيد بالبيان و الوضوح (١) ،

---

(١) . و قد جاء فى سورة يوسف : « تلك آيات الكتاب المبين » و فى سورة الشعراء : « بلسان عربى مبين» وفى سورة القمر : (و لقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) .

و لقد قال فى سورة البقرة : و لقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون (١) » وقد ثبت من ذلك أنه لا يتعسر فهم ما جاء فى القرآن ، و إنما يحتج بتعسره و غموضه من جمحت نفسه ، وقسا قلبه ، فان النفوس تعاف الانقياد وتتهرب من العمل و الطاعة ، و إنما تريد أن يلقى حبلها على غاربها ، و تترك لها حريتها و انطلاقها .

و لا يتوقف فهم كلام الله ورسوله على علم غزير ، و ذكاء حاد ، فان الأنبياء لم يبعثوا إلا لهداية الضلال ، و تعليم الجهال، و قد قال الله تعالى فى سورة الجمعة : « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين (٢) » ، و قد من الله بذلك على عباده ، فمن مضى بعد ذلك يقول: إنه لا سبيل لغير العالم إلى فهم ما جاء به النبي ، ولا طاقة لغير من سمت هممهم، وتزكت نفوسهم أن يعمل بتعاليمه ، و يسلك طريقه ، فقد أنكر هذه الآية ، و كفر بهذه النعمة ، و حرى أن يقال إن القرآن يرتقى بالجهال إلى درجة العلماء ، و الضلال إلى مستوى الصالحين و الأصفياء ،

---

(١) سورة البقرة الآية ٩٩ .
(٢) سورة الجمعة الآية ٢ .

فرب جاهل لا يفقه شيئاً بلغ بفهمه مبلغ العلماء الراسخين ، ورب ضال تائه استنار بنوره ، و اهتدى بهديه ، و بلغ ذروة الصلاح و الاخلاص .

أحوج الناس إلى الطبيب ، المرضى :

إن مثل ذلك كمثل طبيب حاذق ، كثر حوله المرضى ، و انتشرت فى أرضه الأمراض و الأوباء ، فأشير على مريض اشتدت به العلة ، وأضناه المرض ، بالاستعانة بهذا الطبيب وغشيانه ، و لكنه تعلل بقوله : « أنا مريض ، لج بى المرض ، و إنما يأتيه وينتفع به من سلم من الأمراض ، واعتدلت صحته ، وقويت بنيته » فماذا يقول الناس عن عقل هذا الرجل و فطنته ؟ ألا يرون أنه ينكر براعة الطبيب وحذقه ، فان الأطباء لا يعنون إلا بالمرضى، و الطبيب الذى لا يداوى إلا الأصحاء ، و لا ينتفع بدوائه إلا الأقوياء ، أما المرضى فهم أشقى الناس بطبه وحذقه ، فلا خير فى هذا الطبيب ، إنه اسم بلا مسمى ، و لفظ بلا معنى .

كذلك كل من أمعن فى الجهالة كانت حاجته أشد إلى تفهم كلام الله و رسوله ، و كان حرياً بأن يكون أحرص عليه من غيره ، و من كثرت ذنوبه و خطاياه ، واشتد ظلمه لنفسه ، كان أجدر بالاقبال على كتاب الله ، و هدى رسوله ، حتى يصلح

حياته ، و ينقذ نفسه ، كذلك يجب على كل طبقة من طبقـــات الناس ، الخاصة منها والعامة ، أن تتفحص عن كلام الله ورسوله ، و تتفهمه ، و تسلكه فى حياتها ، و تزن إيمانهـــا و عقيدتها فى ميزانه ، و تحكه على محكه .

الايمان جزءان :

وليعلم أن للايمان جزئين ، الأول الايمان بالله كإله ورب ، و الايمان بالرسول كرسول و نبي . و الايمان بالله كإله و رب ، يعني أن لا يشرك به أحد ، و الايمان بالرسول كرسول و نبي ، يعنى أن لا يسلك طريق غيره ، فيجب على كل أحد أن يتمسك بالتوحيد و اتباع السنة بقوة و عزم ، ويبتعد عن الشرك والبدعة كل الابتعاد ، فانهما « الشرك و البدعـــة » يؤثران فى الايمـان ، و يحدثان خللا فيـه ، أما سائر الذنوب و المعاصى فهى تؤثر فى الأعمال ، و تحدث خللا فيها .

من يصلح للاقتداء ؟ !

و يجب أن لا يتخذ قدوة وإماماً إلا من رسخت قدمه فى التوحيد ، و اتباع السنة ، و كان يعزل عن الشرك و البدعة ، بعيداً عنهما كل البعد ، وينتفع الناس بصحبته ، و يسرى فيهم نور التوحيد و حب السنة .

موضوع الكتاب و نظامه :

لذلك ذكرنا فى هذه الرسالة جملة من الآيات و الأحاديث ، ذات صلة قوية بالتوحيد و اتباع السنة ، و ذم الشرك و البدعة و نبذهما ، و آثرنا فيهـا السهولة و الوضوح ، حتى ينتفع به الخاصة و العامة بطريق سواء ، و يسلك من وفقه الله الصراط المستقيم ، و يتقرب به إلى الله من يدعو إلى ذلك ، و يكون له وسيلة إلى النجاة .

استفحال فتنة الشرك و الجهالة فى الناس :

اعلم أن الشرك قد شاع فى الناس فى هذا الزمان وانتشر ، و أصبح التوحيد الخالص غريباً ، و لكن معظم الناس لا يعرفون معنى الشرك ، و يدعون الايمان مع أنهم قد تورطوا فى الشرك و تلوثوا به ، فمن المهم قبل كل شئ أن يفقه الناس معنى الشرك و التوحيد ، و يعرفوا حكمهما فى القرآن و الحديث .

مظاهر الشرك و أشكاله المتنوعة :

و من المشاهد اليوم أن كثيراً من الناس يستعينون بالمشايخ و الأنبياء ، و الأئمة (١) و الشهداء ، و الملائكة ، و الجنيات

---

(١) يعنى أئمة أهل البيت الذين غلت فيهم الشيعة ، وأحاطوهم بهالات ←

عند الشدائد ، فينادونها ، و يصرخون بأسمائها ، ويسألون عنها قضاء الحاجات و تحقيق المطالب ، و ينذرون لها ، و يقربون لها قرابين لتسعفهم بحاجاتهم ، و تقضى مآربهم ، وقد ينسبون إليها أبناءهم طمعاً فى رد البلاء ، فيسمى بعضهم ابنه بعبد النبى و بعضهم بعلى بخش ، وحسين بخش ، وبير بخش ، ومدار بخش (١) ، وسالار بخش (٢) ،

★ من التقديس والتعظيم، ويعتقدون فيهم العصمة، والاطلاع على الغيب ، ويفسرون الامامة تفسيراً يجعلها مشاركة للنبوة ، بل منافسة لها فى كثير من الخصائص ، وقد تأثر أهل السنة بكثير من العقائد الشيعية فى الهند بتأثير الحكام و الأمراء ، و حكم الاختلاط بهم ، و الجهل بالاسلام .

(١) هو الشيخ الكبير المعمر بديع الدين المدار الحلبى المكنبورى ، أحد مشاهير الأولياء بأرض الهند ، ينسبون إليه من الوقائع الغريبة ما يأباه العقل و النقل ، و إليه نسب شهر من شهور السنة فى التقويم المنتشر عند العامة و أهل القرى فى الهند و دخل اسمه فى الأمثال السائرة عند عوام الناس ، و هو مؤسس الطريقة المدارية التى انحرفت فى العهد الأخير، ودخل فيها الشئ الكثير من الخرافات والرياضات البهلوانية ، كانت وفاته فى عاشر جمادى الأولى سنة ٨٤٤هـ .

(٢) هو السيد سالارمسعود الغازى من أشهرالأعلام فى الهند ، ✪

و غلام محی الدين ، وغلام معين الدين (١) ، ويرسل بعض الناس

⊛ نسجت حوله أساطير كثيرة ، و شخصيته لم يسلط عليها الضوء الكافى علمياً و تاريخياً ، ذكره ابن بطوطة فى رحلته ، و قال إنه فتح أكثر تلك البلاد ، و له أخبار عجيبة ، و غزوات شهيرة ، مات شهيداً سنة ٥٨٨هـ ، و دفن فى مدينة بهرائج فى الولاية الشمالية فى الهند ، قال فى « نزهة الخواطر » : بنى على قبره ملوك الهند عمارة سامية البناء ، والناس يفدون إليه من بلاد شاسعة ، ويزعمون أنه كان عزباً شاباً لم يتزوج ، فيزوجونه كل سنة ، و يحتفلون لعرسه و ينذرون له أعلاماً فينصبونها على قبره » .

(١) معنى « بخش » الهبة والرزق ، يعنى فلان هبة فلان ورزقه ، و على هو على بن أبى طالب ، و حسين هو حسين بن على ، و « بير » معناه الشيخ ، و مدار ، و سالار ، أسماء رجال صالحين ، و مشايخ مشهورين فى الهند ، و غلام معناه عبد ، و محى الدين المراد به الامام عبد القادر الجيلانى المشهور ، و معين الدين هو الشيخ معين الدين الجشتى الأجميرى ، مؤسس الطريقة الجشتية فى الهند ، و صاحب الفضل فى انتشار الاسلام فى شبه القارة الهندية ، كانت وفاته فى سادس رجب سنة ٦٢٧هـ .

وهذه الأسماء كلها غير شرعية ، وتنم عن عقيدة فى القدرة و التصرف ، و الهبة و الرزق ، فى الأولياء و الصالحين .

ضفيرة فى رأسه باسم ولى من الأولياء ، و بعضهم يقلد ابنه قلادة باسم شيخ أو ولى ، و بعضهم يكسو ولده لباساً ، و بعضهم يصفد ابنه بقيد فى الرجل باسم أحد المشايخ و الأولياء ، و بعضهم يذبح حيواناً بأسمائهم ، و بعضهم يستغيث بهم عند الشدة ، وبعضهم يحلف فى حديثه بأسمائهم .

تقليد جهال المسلمين للشركين القدامى :

و الحاصل أنه ما سلك عباد الأوثان فى الهند طريقاً مع آلهتهم ، إلا و سلكه الأدعياء من المسلمين مع الأنبياء و الأولياء ، و الأئمة والشهداء و الملائكة والجنيات ، و اتبعوا سنن جيرانهم من المشركين شبراً بشبر ، و ذراعاً بذراع ، و حذو القذة بالقذة ، و النعل بالنعل ، فما أجرأهم على الله ، و ما أبعد الشقة بين الاسم و المسمى ، و الحقيقة و الدعوى .

وصدق الله العظيم ، إذ قال فى سورة يوسف : « وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون (١) » فاذا عارضهم معارض ، وقال: أنتم تدعون الايمان ، وتباشرون أعمال الشرك ، فكيف تجمعون بين الماء و النار ، و توافقون بين الضب و النون ؟ قالوا : نحن لا نأتى بشئ من الشرك ، إنما نبدى ما نعتقده فى الأنبياء والأولياء من الحب

(١) سورة يوسف الآية ١٠٦ .

والتقدير ، أما إذا عدلناهم بالله ، واعتقدنا أنهم و الله جل وعلا بمنزلة سواء ، كان ذلك شركا ، لا شك فيه ، و لكننا لا نقول بذلك ، بل نعتقد بالعكس ، إنهم خلق الله و عبيده ، أما ما نعتقده فيهم من القدرة والتصرف فى العالم ، فهما مما أكرمهم الله وخصهم به ، فلا يتصرفون فى العالم إلا بإذن منه ورضاه ، فما كان نداؤنا لهم ، و استعانتنا بهم إلا نداء لله و استعانة به ، و لهم عند الله دالة و مكانة ليست لغيرهم ، قد أطلق أيديهم فى ملكه ، و حكمهم فى خلقه ، يفعلون ما يشاؤن ، و ينقضون ويبرمون ، وهم شفعاؤنا عند الله ، و وكلاؤنا عنده ، فمن حظى عندهم ، و وقع عندهم بمكان ، كانت له حظوة و منزلة عند الله ، و كلما اشتدت معرفته بهم ، اشتدت معرفته بالله ، إلى غير ذلك من التأويلات الكاسدة ، و الحجج الداحضة ، التى ما أنزل الله بها من سلطان .

و السر فى ذلك أن القوم قد نبذوا كلام الله و حديث رسوله وراءهم ، و سمحوا لعقولهم القاصرة أن تتدخل فيما ليس لها مجال فيه ، وتشبثوا بالأساطير والروايات الشائعة التى لا تستند إلى تاريخ و نقل صحيح ، و احتجوا بتقاليد خرافية . وعادات جاهلية ، وإن كانوا عولوا على كلام الله و رسوله و عنوا بتحقيقه ، عرفوا أنها نفس التأويلات ، والحجج التى كان كفار العرب يتمسكون بها

فى عصر النبى صلى الله عليه و آله و سلم ، و يحاجونه بهـا ، و لم يقبلها الله منهم ، بل كذبهم فيها ، فقال فى سورة يونس : « ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ، ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عندالله ، قل أتنبئون الله بمالا يعلم فى السماوات والأرض ، سبحانه و تعالى عما يشركون (١) » و قد علمنا من هذه الآية أنه لا يوجد فى سماء و لا أرض من يشفع لأحد ، و تنفع شفاعته من استشفع به ، و ما شفاعة الأنبياء و الأولياء إلا باذن ربهم ، « لا يشفعون إلا لمن ارتضى ، و هم من خشيته مشفقون (٢) » فسواء ناداهم أحد ، أو صرخ باسمهم ، أو لم ينادهم و لم يصرخ باسمهم ، فلا يتحقق إلا ما يريده الله و يأمر به .

و قد تبين من هذه الآية ، أن من عبد أحداً من الخلق ، اعتقاداً بأنه شفيعه ، كان مشركا بالله ، وقد قال الله تعالى فى سورة الزمر : « و الذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون ، إن الله لا يهدى من هو كاذب كفار (٣) » .

---

(١) سورة يونس الآية ١٨ .

(٢) سورة الأنبياء الآية ٢٨ .

(٣) سورة الزمر الآية ٣ .

و قد نكب هؤلاء الجهال عن طريق الحق ، وأعرضوا عن الله الذى كان أقرب إليهم من كل أحد ، و أقبلوا على غير الله ، و اتخذوه ظهيراً و نصيراً ، و ولياً من دون الله ، و حرموا نفوسهم النعمة الكبيرة ، التى أنعم الله بها عليهم ، فانه يحقق جميع المطالب ، و يرد جميع الآفات من غير واسطة ، فلم يشكروا هذه النعمة ، و لم يقدروها قدرها ، وأقبلوا على خلقه يطلبون منهم قضاء الحاجات ، ورفع الآفات ، فعسروا الميسور ، وفضلوا ملتوى الطريق ، و جاهدوا فى غير جهاد ، و بدلوا نعمة الله كفراً وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، ويبتغون فى ذلك عندالله قرباً وزلفى ، و لكنهم لم ينالوا بذلك مطلوبهم ، ولم يسعدوا بالقرب عند الله ، بل بالعكس من ذلك ، كلما أمعنوا فى هذا الطريق ، و استمروا فى هذا السلوك ، ازدادوا من الله بعداً ، و قد وضح من ذلك ، أن من اتخذ وليا من دون الله ، و إن كان ذلك على أساس أن عبادته تقربه عند الله كان مشركا بالله ، كاذباً، كافراً بنعمة الله .

وقال الله تعالى فى سورة المؤمنون : « قل من بيده ملكوت كل شئ ، و هو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ، سيقولون لله ، قل فأنى تسحرون (١) » .

---

(١) سورة المؤمنون ٨٨ — ٨٩ .

و قد تبين من هذه الآية ، أن الله سبحانه و تعالى لم يمنح أحداً من خلقه قدرة التصرف فى العالم ، وأنه لا طاقة لأحد أن يدافع عن أحد .

حقيقة شرك أهل الجاهلية و ضلالهم :

و كذلك تبين أن الكفار الذين كانوا فى عصر النبي ﷺ ، لم يكونوا يعدلون آلهتهم بالله ، و يرونهم مع الله بمنزلة سواء ، بل كانوا يقرون بأنهم مخلوقون و عبيد ، و لم يكونوا يعتقدون أبداً أن آلهتهم لا يقلون عن الله قدرة و قوة ، وهم ، و الله فى كفة واحدة ، فما كان كفرهم و شركهم إلا نداءهم لآلهتهم ، و النذور التى كانوا ينذرون لها ، و القرابين التى كانوا يقربونها بأسمائهم ، و اتخاذهم لهم شفعاء ، و وكلاء ، فمن عامل أحداً بما عامل به الكفار آلهتهم ، و إن كان يقر بأنه مخلوق و عبد ، كان هو و أبو جهل فى الشرك بمنزلة سواء .

خلال الشرك و أعماله :

فاعلم أن الشرك لايتوقف على أن يعدل الانسان أحداً بالله ، ويساوى بينهما ، فلا فرق ، بل إن حقيقة الشرك أن يأتى الانسان بخلال وأعمال ، خصها الله بذاته العلية ، و جعلها شعاراً للعبودية، لأحد من الناس ، كالسجود لأحد ، و الذبح باسمه ، و النذر له ،

والاستغاثة به فى الشدة ، واعتقاد أنه حاضر ناظر فى كل مكان ، و إثبات قدرة التصرف له ، وكل ذلك يثبت به الشرك ، ويصبح الانسان به مشركا ، وإن كان يعتقد أن هـذا الانسان ، أو الملك ، او الجنى الذى يسجد له ، أويذبح ، أو ينذر له ، أويستغيث به ، أقل من الله شأناً ، و أصغر منه مكاناً ، و أن الله هو الخالق ، و هذه عبده و خلقه ، لا فرق فى ذلك بين الأولياء و الأنبياء ، و الجن و الشياطين ، و العفاريت ، و الجنيات ، فمن عاملها هذه المعاملة كان مشركا، لذلك وصف الله اليهود والنصارى ، الذين غلوا فى أحبارهم و رهبانهم ، مثل ما غلا المشركون فى آلهتهم بما وصف به عباد الأوثان والمشركين ، وغضب على هؤلاء الغلاة المنحرفين ، كما غضب على غلاة المشركين ، فقال : « اتخذوا أحبارهم و رهبانهم أرباباً من دون الله ، و المسيح بن مريم ، وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً ، لا إله إلا هو ، سبحانه وتعالى عما يشركون (١) » .

و قد ذكر أن جميع الخلق سواءاً كانوا علماء أو عبـاداً ، حكامـاً أو ملوكا ، كلهم عبيد خاضعون ، عاجزون ضعفـاء ، لا يملـكون موتاً و لا حيـاة و لا نشوراً ، و لا يملـكون إذا بعثهم الله ، وطلبهم إلا أن يقفوا أمام ربهم خاضعين مستسلمين ، طائعين

---

(١) سورة التوبة الآية ٣١ .

منقادين ، يقول الله تعالى فى سورة مريم « إن كل من فى السماوات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً ، لقد أحصاهم وعدهم عداً، وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً (١) ، فظهر أنه هو المتصرف وحده ، وأنه لايملك أحداً غيره ولايمكنه فيه ، و أن الناس يأتون ربهم فرادى لا يمنع أحد آخر ، و قد تظافرت الآيات على ذلك و كثرت .

و من تأمل فى آيتين ، أو ثلاث من الآيات الكثيرة التى سردناها ، و التى لم يتسع المجال لذكرها ، عرف الفرق بين الشرك و التوحيد ، و تجلت له حقيقتهما ، و قد آن الأوان لأن نذكر الخلال و الأعمال التى خصصها الله بذاته العلية ، ولم يأذن لغيره أن يكون له نصيب منها ، و هى كثيرة يطول ذكرها ، و لكن لابد أن نخص بالذكر منها ما يستطيع القارئ ، الفهم الذكى أن يقيس عليها ، و يميز بين الحق و الباطل ، و الهدى و الضلال .

العلم المحيط الشامل من خصائص الله تعالى :

و فى مقدمة هذه الأمور ، أنه من شأن الله وحده أن يكون حاضراً و ناظراً فى كل مكان ، يعلم ما دق و جل ، و بعد أو دنا ، أو خفى أو ظهر ، لا تخفى عليه خافية فى أى وقت ، لا فرق فى ذلك بين نور وظلمة ، وبين سماوات وأرضين ، و بين قلل

(١) سورة مريم الآية ٩٣ - ٩٤ — ٩٥ .

الجبال ، و أغوار البحار ، هـذا العلم المحيط الشامل لكل زمان ومكان ، الذى لا يعزب عنه مثقال ذرة ، صفة خاصة بالله تعالى ، لايشاركه فيها أحد ، فمن كان يلهج باسم أحد من الخلق ، وينادیه قائماً وقاعداً ، وعن قرب وبعد ، ويستصرخه ويستغيث به عند نزول البلاء ، ودفع الأعداء ، ويختم ختمة باسمه ، أو يراقبه ، و يركز فكره عليه ، و يصرف همته إليه ، متمثلا صورته كأنه يشاهده ، و يعتقد أنه إذا ذكر اسمه باللسان أو القلب ، أو تمثل صورته ، أو قبره ، واستحضرهما ، علم بذلك و عرفه ، و أنه لا يخفى عليه من أمره شئ ، و أنه مطلع على ما ينتابه من مرض و صحة ، و عسر و يسر ، و موت وحياة ، و حزن وسرور ، ولا يتفوه بشئ من كلام ، و تنطق به شفتاه ، ولا يساوره هم من الهموم ، و لا يجول بخاطره معنى ، إلا و علم ذلك ، و اطلع عليه ، كان بذلك مشركا ، و كل ذلك يدخل فى الشرك .

و يسمى هذا النوع « الاشراك فى العلم » ، و هو إثبات صفة العلم المحيط لغير الله ، و إن كان هذا الاثبات لنبي أو ولى ، أو شيخ أو شهيد ، و إمام (١) أو سليل إمام ، أو عفريت أو جنية ، سواء اعتقد أنه يعلم من ذاته ، أو يعلم أنه منحة من الله ،

(١) يعنى أئمة أهل البيت .

و عطاء منه ، و قد استقل بهذا العلم ، و أصبح له صفة لا تنفك عنه ، كل ذلك شرك .

التصرف المطلق بالارادة ، و القدرة الكاملة ، من خصائص الله تعالى :

و الشئ الثانى يجب أن يعتقد الانسان ، أن التصرف فى العالم بالارادة ، و إصدار الأمر و النهى ، و الاماتة و الاحياء كما يشاء ، و البسط و القبض فى الرزق ، و الافاضة بالصحة والمرض ، و الفتح والهزيمة ، و تسخير القضاء و القدر لانسان ، فيكون النصر دائماً حليفه ، و يكون محظوظاً لا تزال أموره فى إقبال ، أو بالعكس فتدبر عنه الدنيا ، و يلج به الخذلان ، وانجاح المطالب و تحقيق الأمانى ، و دفع البلايا ، و الاغاثة فى الشدائد ، و إلهاف الملهوف ، و إنهاض العاثر ، هذه كلها من خصائص الله تعالى ، لا يشاركه فيها أحد من الأنبياء و الأولياء ، و الشهداء و الصلحاء ، و العفاريت و الجنيات ، فمن أثبت هذا التصرف المطلق لأحد منهم ، وطلب منه حاجاته ، و قرب القرابين و النذر لأجل ذلك ، أو استصرخه فى نازلة ، كان مشركا ، و يقال لهذا النوع « الاشراك فى التصرف » سواءاً اعتقد أنهم يقدرون على ذلك بأنفسهم ، أو اعتقد أن الله سبحانه وتعالى وهبهم هذه القدرة،

و خلع عليهم هذه الكرامة.

أعمال العبادة وشعائرها، خاصة بالله تعالى:

و الشئ الثالث أن الله سبحانه وتعالى خصص بعض أعمال التعظيم لنفسه، و هى التى تسمى «عبادة» كالسجود و الركوع، والوقوف بخشوع وتواضع (مثلا يضع يده اليمنى على اليسرى(١)) و إنفاق المال باسم من يعتقد فيه الصلاح أو العظمة، و الصوم له، و قصد بيته من أنحاء بعيدة، و شد الرحل إليه بوجه يعرف كل من رآه أنه يؤم بيته حاجاً زائراً، والهتاف باسمه فى الطريق كالتلبية، و التجنب من الرفث و الفسوق، و القنص و صيد الحيوانات، و يمضى بهذه الآداب و القيود، و يطوف بالبيت، و يسجد إليه، و يسوق الهدى إليه، و ينذر النذور هناك، و يكسو ذلك البيت، كما تكسى الكعبة، و الوقوف على عتبته، و الاقبال على الدعاء والاستغاثة، و السؤال لتحقيق مطالب الدنيا والآخرة، وبلوغ الأمانى، وتقبيل حجر من أحجار هذا البيت و الالتزام بجداره، والتمسك بأستاره، و إنارة السرج والمصابيح حوله تعظيما و تعبداً، والاشتغال بسدانته، والقيام بجميع الأعمال التى يقوم بها السدنة من كنس و إنارة، و فرش و سقاية،

---

(١) كما كان يقف العبيد بين يدى سادتهم فى مجالس الملوك فى بلاد العجم.

و تهيئة أسباب الوضوء و الغسل ، وشرب ماء بئره تبركا ، وصبه على الجسم ، و توزيعه على النـــاس ، و حمله إلى من لم يحضر ، و المشى مدبراً عند العودة ، حتى لا يولى البيت دبره ، و احترام الغابة التى تحيط به ، و التأدب معها ، فلا يقتل صيدها ، ولا يعضد شجرها ، و لا يختلى خلاها ، و لا يرعى ماشية فى حماها .

كل هذه الأعمال علمها رب العالمين عباده ، وأفردها لنفسه ، فمن أتى بهـا لشيخ طريقـة ، أو نبى ، أو جنى ، أو لقبر محقق ، أو مزور ، أولنصب ، أو لمكان عبادة ، عكف فيها أحد الصالحين على العبادة و الذكر و الرياضـــة ، أو لبيت ، أو لأثر من آثار أحد الصالحين ، يتبرك به ، أو شعار يعرف به، أو يسجد لتابوت أو يركع له ، أو يصوم باسمه (١) أو يقف أمامه خاشعاً متواضعاً ، واضعاً إحدى يديه على الأخرى ، أو يقرب له حيواناً ، أو يؤم

(١) يظهر أن بدعة الصوم بأسماء الصالحين و الصالحات من الأمة ، قد ظهرت فى العصر القديم فى الهند ، و قد يكون الصوم لشخصيات خيالية لا وجود لها ، و لهذا الصوم أحكام و آداب فى النية و الافطار ؛ و أيام محدودة ، و يطلب منه قضاء الحاجات من أولئك الذين يصام باسمهم ، والاستعانة بهم ، و قد شنع على ذلك الامام الشيخ أحمد بن عبد الأحد السرهندى (المتوفى ١٠٣٤هـ) فى رسالة له إلى إحدى الصالحات من أتباعه ، و عده إشراكا فى العبادة . (رسالة رقم ٣/٤١ رسائل الامام أحمد بن عبدالأحد).

بيتاً من هذه البيوت من بعيد ، فيشد إليه الرحل، أو يوقد السرج فيه تعظيما و تعبداً ، أو يكسوه بكسوة (كما تكسى الكعبة) أو يضع على ضريح ستوراً (١) ، أو يغرز علماً ، أو عوداً باسمه (٢)

---

(١) اعتاد الغلاة فى تعظيم الأموات والقبور أن يكسوا ضرائح الأولياء و الصالحين بالستور والثياب ، و يعاملونها معاملة الأحياء من المشايخ و العظماء .

و قد ظهرت هذه البدعة فى بعض البلاد العربية ، يقول الشيخ على محفوظ فى كتابه « الابداع فى مضار الابتداع » : « ومن البدع الستور التى توضع على الأضرحة ويتنافس فيها » ، إلى أن قال : « ولكن خدمة الأضرحة سول لهم الشيطان ، ذلك ليفتح لهم باباً من الارتزاق الخبيث ، فتراهم إذا احتاجوا لتجديد ثوب التابوت لكل عام، أو إذا بلى ، يوهمون العوام أن بها من البركة ما لا يحاط به ، و إنها نافعة فى الشفاء من الأمراض ، و دفع الحساد و جلب الأرزاق و السلامة من كل المكاره ، و الأمن عن جميع المخاوف ، فتهافت عليها البسطاء ، و هان عليهم بذل الأموال فى الحصول على اليسير منها» . (الابداع ص ٩٦ — ٩٧)

(٢) و هى من عادات الغلاة و الجهال فى الهند .

و إذا رجع رجع على أعقابه ، أو يقبل القبر ، أو يحرك المراوح عليه ، ليذب الذباب ، كما يفعل الخدم مع أسيادهم الأحيـاء ، أو ينصب عليه سرادقاً ، أو يقبل عتبته ، و يضع اليمنى على اليسرى ، و يتضرع إليه ، أو يجلس على ضريح سادنا وقيما ، و يتأدب مع ما يحيط به من أشجار و آجام ، وأعشاب ، فلا يتعرض لها باهانة أو إزالة ، إلى غير ذلك من الأعمـال و الالتزامات ، فقد تحقق عليـه الشرك ، و يسمى « إشراكا فى العبادة » سواءآ اعتقـد أن هذه الأشياء تستحق التعظيم بنفسها ، وأنها جديرة بذلك ، أواعتقد أن رضا الله فى تعظيم هـذه الأشياء ، و أن الله يفرج الكرب ببركة هذا التعظيم .

علامات التعظيم الدال على العبودية و الاستكانة ، خاصة بالله تعـالى :

الرابع أن الله علم عباده طرقاً يستقيم بهـا إيمانهم ، و تنزل البركة فى حياتهم الدنيا ، و تتحقق بها مطالبهم ، منها النذر لله فى الشدة ، ونزول البلاء ، و النداء باسمه عند كربة وضيق ، وافتتاح كل عمل باسمه ، و الذبح له حين يرزقون ولداً شكراً لله تعـالى ، و تسميتهم بأسماء يتجلى فيهـا التوحيد و العبودية ، كعبـد الله ، وعبد الرحمن ، وهبة الله ، وجاد المولى ، وعطاء الله ، وأمة الله ،

و عطيـــة الرحمن (١) ، و تخصيص جزء من حواصل المزارع ، و ثمار البساتين باسم الله تعالى ، و تخصيص جزء من المـــال ، و الماشية ، و نذره لله تعالى ، وتعظيم الهدى والقلائد لبيت الله ، و امتثال أوامره ، و الانتهاء من نواهيه فى المأكل ، والمشرب ، و الملبس ، و اعتقاد أن كل ما يصيبه من خير و شر ، ومجاعة ، و رخص و غلاء ، و صحة و سقم ، و فتح و عزيمة ، و سعد و شقاء ، و مساعدة الحظ و تخلفه ، و حزن وفرح ، كلـــه فى قبضته ، و الاحالة إلى مشيئته قبل ذكر إرادته ، فيقول سأعمـــل كذا إذا شاء الله ، وتعظيم اسمه تعظيما تتجلى فيه قدرة الله ، وعجز العبيد ، فيقول مثلا ربى ، و سيدى ، و خالق ، و إذا أراد أن يحلف يحلف باسمه ، إلى غير ذلك من علامات التعظيم وشعائره ، فمن أتى بذلك للأنبياء والأولياء ، والأئمة والشهداء ، والعفاريت والجنيات ، مثلا ينذر لها إذا ألمت به كربة ، أو نزلت به ضائقة ،

---

(١) ذكر المؤلف هنا أسماء هندية تنطق بالتوحيـد ، و تنم عن العقيدة الصحيحة كـ « خدا بخش » يعنى هبة الله ، و « الله ديا » يعنى عطاء الله ، و « الله دى » للأنثى يعنى عطية الله ، غيرناهـــا بأسماء شائعة فى بلاد العرب ، تسهيلا للقارئ العربى .

أو ينادى بأسمائها عند ملمة أونازلة ،أو يفتتح عمله بأسمائها ، وإذا رزق ولداً ، نذر لهـا نذوراً ، أو سمى أولاده بـ « عبدالنبى » أو « إمام بخش » أو « پير بخش » ، ويخصص جزءاً من الحبوب أو الثمرات لها . ويقدم لها مما أخرجته الأرض من زروع وأثمار، ثم يستعمله فى أغراضـه ، و يخصص من المـال ، و قطعـان الأنعـام ، أموالا و دواب ، ثم يتأدب معها ، فلا يصرفهـا ، و لا يزجرها عن العلف و التبن ، و لا يضربها بعصاً أو حجر أدباً و تعظيما ، و يتمسك بالعادات القديمة ، و الأعراف الشائعة فى الأكل و الشرب ، و اللباس ، و يتقيد بهـا كما يتقيد بأحكام الشريعة ، فيحرم طعاماً ولباساً لأناس ، ويحلهما لأناس ، ويحظرهما على طبقة (كالذكور و الأناث) ، ويبيحهما لأخرى ، فيقول : إن الطعام الفلانى لا يقربه الرجال [1] ، و إن الطعـام الفلانى لا تقربه الجوارى ، و لا تقربه المرأة التى تزوجت بزوج ثان ، و إن الخبيص الذى يعد باسم الشيخ عبد الحق [2] لا يأكله من

(١) نوع من الطبخ يطبخ فى الهند باسم السيدة فاطمة بنت النبى صلى الله عليه و آله وسلم ، يمنع منه الرجال دون النساء ، فلا يأكلونه ، و لا يقربونه .

(٢) يعنى الشيخ عبد الحق الردولوى من كبار المشايخ والمربين ←

يستعمل النارجيلة (١) ، و ينسب ما يحدث من خير و شر ، و ما ينتاب من بؤس و رخاء ، إلى هؤلآء المشايخ و الأولياء ، فيقول : إن فلاناً أدركته لعنة فلان ، فجن ، و فلان طرده فلان فافتقر ، و فلان أنعم عليه فلان فساعده الحظ ، وحالفه الاقبال ، و أصابت الناس المجاعة بنوء كذا ، ونوء كذا ، و فلان بدأ عمله يوم كذا ، و فى ساعة كذا فلم يوفق ، و لم يتم ، أو يقول : إن شاء الله و رسوله كان كذا ، أو يقول : إن شاء شيخى وقع كذا ، أو يضفى على من يعظمه أسماءآ و صفات تختص بالله ، وهى من نعوت العظمة و الكبرياء ، والغنى عن الخلق ، والقدرة

و من أئمة الطريقة الچشتية فى الهند ، ولد و نشأ فى « ردولى » من توابع لكناؤ ، و كان له شأن رفيع فى التوحيد ، و تعظيم الشريعة ، و المحافظة على الفرائض و السنن ، ودعاء الخلق إلى الله ، و التجريد و التفريد ، توفى سنة ٨٣٦هـ ، و قد اخترع الغلاة والجهال فى الهند طعاماً خاصاً يسمونه بـ « زاد الشيخ عبد الحق » يركب من السميد والسكر ، وله آداب ، وقيود يحافظ عليها بشدة . الخبيص : الحلواء المخبوصة وخبص الشئ بالشئ : خلطه .

(١) يعنى الشيشة .

المطلقة ، و الجود الذى لا نهاية له ، أو القهر و الجبروت ، مثل المعبود ، و أغنى الأغنياء ، و إله الآلهة ، و مالك الملك ، وملك الملوك ، أو يحلف بالنبي ، أو بعلى ، أو بأحـــد أولاده (الذين يسميهم الشيعة الأئمة الاثنى عشر) أوبشيخ ، أو بقبره ، كل ذلك يتحقق منه الشرك و يسمى « الاشراك فى العبادة » يعنى أن يعظم غير الله فى الأعمال التى اعتادها تعظيما ، لا يليق إلا بالله .

و هذه الأنواع الأربعة للشرك ، قد جاء ذكرها صريحاً فى القرآن والحديث ، لذلك قسمنا هذا الباب فى خمسة فصول ، وهى كما يلى .

✿ ✿ ✿

الفصل الأول

فى التحذير عن الشرك

قال الله تعالى : « إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، و من يشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيداً (١) .

الفرق بين الشرك ، و سائر الذنوب :

اعلم أن هنالك أنواعاً من الذنوب و الآثام ، يقترفها الناس إذا جمحت بهم النفوس ، و غلبهم الهوى ، فمنهم من لا يميز بين حلال و حرام ، و منهم من يقترف سرقة ، أو عملا من أعمال الفسوق ، أو يترك الصلاة و الصيام ، أو لا يأتى بما فرض الله عليه من حقوق الأهل و العيال ، أو يسيئ إلى والديه ، و يغلظ القول لهما ، و لكن الذى تورط فى الشرك فقد أسرف ، و ظلم نفسه ظلما مبيناً ، لأنه قد جنى جناية لا يغفرها الله ، أما الذنوب

(١) سورة النساء ١١٦ .

و الآثام الأخرى ، فربما يغفرها الله ، و يتجاوز عنها ، و لكن الشرك ، لابد أن يوفى حسابه .

الشرك الجلى ثورة وخروج ، يحرك الغيرة الالهية :

الشرك الجلى الذى هو من آخر درجات الشرك ، و يكفر به الانسان ، يبقى صاحبه فى النار خالداً مخلداً لا يخرج منها ، أما أنواع الشرك ، التى هى دون هذا الشرك ، فسيلقى صاحبها ما أعد الله لها من العقوبات فى الآخرة ، إن شاء عفا عنها ، و إن شاء أخذ بها ، و مثل ذلك أن الملك قد يعفو عن أناس من رعيته يرتكبون سرقة ، و عن أناس يقطعون الطريق على قوافل ، أو يشنون غارة، و منهم من يتكاسل عن الحراسة ، أو الخفارة فينام عنها ، ومنهم من يتخلف عن حضور مجلس الملك ، و المثول بين يديه عندما يجلس للناس ، و يتهاون بذلك ، و منهم من يتولى عن الزحف ، ويتسلل عن الحرب ، ومنهم من يقصر فى أداء الضرائب و واجبات الحكومة ، و لكل جناية من هذه الجنايات عقوبات محددة عند الملك ، إن شاء أخذ بها ، و إن شاء عفا عنها .

و تقابل هذه الجنايات جنايات تنم عن الثورة على الملك و الخروج عليه ، مثلا يبايع بالملك لأمير أو وزير ، أو دهقان أو مرزبان ، أو عمدة قرية ، أو موظف حكومى من أصحاب

النباهة و أهل النبل ، أو لكنـاس أو إسكاف من أهل المهن الوضيعة ، و الطبقات السافلة ، فيصنع له تاجاً و إكليلا ، و يهيئ له عرشاً و سريراً ، أو يخلع عليه الألقاب الملوكية ، و يخاطبه بجلالة الملك ، و ظل الله فى الأرض ، أو يأتى له بالتحيات التى يؤتى بها للملوك ، و بالآداب التى جرت بها العادة عند الملوك ، أو يحتفل بيوم جلوسه ، كما تحتفل الرعية بيوم جلس فيه ملكها على العرش و جرى تتويجه (١) فيه ، أو يقدم له نذراً (٢) ، كما

---

(١) كانت للملوك فى الهند أيام معلومة يحتفلون بها ، فيوزعون فيها الصدقات على الفقراء و المساكين ، و كان من هذه الأيام اليوم الذى جلس فيه على العرش ، فكان الملك يوزن بالذهب والفضة ، فيوزع ما وزن به على الفقراء ، و كان ذلك اليوم يؤرخ به ، فيقال السنة الجلوسية ، و كان هذا الاحتفال من شعائر الملك ، و مظهراً من مظاهر العظمة والأبهة ، وكان مختصاً بصاحب السرير والتاج ، لا يشركه فيه أحد من الرعية .

(٢) اعتاد الملوك من المغول و غيرهم فى الهند أن يقدم لهم الأمراء ، و رجال البلاط ، و الخواص من الرعية نقداً يضعونه على الراحة اليمنى ، ويقدمونه بطريقة مرسومة إليهم فيقبلونه أو يضعون يدهم عليه ، و يردونه إليهم ، فيتبركون

يقدم للملوك ، فهذه الجناية أكبر من كل جناية ، و صاحبها لامحالة لاق جزاءه ، و كل ملك يستهين بشأن هذه الجنايات ، و يغفل عن معاقبة هؤلاء المجرمين كان فى ملكه وهن ، و نسبه العقلاء إلى قلة الغيرة ، وضعف الرأى ، وسقوط الهمة ، أما مالك الملك تبارك و تعالى فهو أغير من كل غيور ، و أقوى من كل قوى ، فيجب أن يخشى بأسه ، و تتق سطوته ، فكيف يعقل أن يتغافل عن المشركين ، و كيف لا يوفيهم حسابهم ، لطف الله بالمسلمين ، ووقاهم آفات الشرك .

الشرك ظلم ، و وضع للشئ فى غير محله :

قال الله تعالى : « وإذ قال لقمان لابنه و هو يعظه : يابنى لاتشرك بالله ، إن الشرك لظلم عظيم(١) » وقد هدت لقمان الحكمة العميقة التى أكرمه الله و خصه بها ، إلى أن أفحش الظلم أن يجود الانسان على أحد بحق غيره ، فمن أعطى حق الله لأحد خلقه فقد عمد إلى حق أكبر كبير ، فأعطاه أذل ذليل ، وكان كرجل وضع

← به ، و يعتبرونه شرفاً عظيماً ، ويسمى «النذر» ، وكان من شعائر السلطنة و الملوكية ، و علامة الاخلاص ، و الحب و التعظيم من الرعية .

(١) سورة لقمان الآية — ١٣ .

تاج الملك على مفرق إسكاف (١)، و أى جور أكبر من هـــذا الجور و أى ظلم أفحش من هذا الظلم ؟

---

(١) و قد بين ذلك الامام عبد القادر الكيلانى المتوفى ٥٦١هـ الذى اتفقت على ولايته وجلالة شأنه الطوائف الاسلامية و جماهير المسلمين، فى مثال حكيم يصور سفاهة من يلتجئ إلى غير الله فى دفع مكروه ، أو جلب منفعة ، تصويراً دقيقاً ، قال رحمه الله :

« اجعل الخليفة أجمع كرجل كتفه سلطـــان عظيم ملكه ، شديد أمره ، مهولة صولته و سطوته ، ثم جعل الغل فى رقبته مع رجليه، ثم صلبه على شجرة الأرز على شاطئ نهر، عظيم موجه، فسيح عرضه ، عميق غوره ، شديد جريه ، ثم جلس السلطان على كرسى، عظيم قدره ، عالية سماؤه ، بعيد مرامه ووصوله ، وترك إلى جنبه أحمالا من السهام ، و الرماح ، و النبل ، و أنواع السلاح والقسى مما لا يبلغ قدرها غيره ، فجعل يرمى إلى المصلوب بما شاء من ذلك السـلاح ، فهل يحسن لمن رأى ذلك أن يترك النظر إلى السلطان ، و يترك الخوف منه ، و الرجاء منه ، و يخاف من المصلوب ويرجو منه ؟ أليس من فعل يسمى فى قضية العقل عديم العقل و مجنوناً ، بهيمة غير إنسان » .

(فتوح الغيب ، المقالة السابعة عشرة)

وليعلم يقيناً أن كل مخلوق كبيراً كان أو صغيراً هو أذل من إسكاف ، أمام عظمة الله و جلالته ، و قد دلت الآية ، و شهد به الشرع و العقل السليم ، أن الشرك أقبح العيوب ، و ما زال الناس يعتبرون إساءة الأدب مع كبرائهم و سادتهم أكبر عيب وأعظم خرق ، فلما كان تبارك و تعالى أكبر من كل كبير ، كانت إساءة الأدب إليه ، والاشراك معه عيباً ليس فوقه عيب ، وخرقاً لا يفوقه خرق ، وقد اتفقت جميع الشرائع على المنع من الشرك ، و الأمر بالتوحيد ، و هو الصراط المستقيم ، و طريق النجاة ، و كل ما عداها من طرق و سبل ، فهى طرق الضلال ، والسبل المردية ، قال الله تعالى : « و ما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إلا أنا فاعبدون (١) » .

إن الله لا يقبل إلا خالصاً ، ليس لأحد فيه نصيب :

أخرج مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ ، قال الله تعالى « أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملا أشرك فيه معي غيري ، تركته و شركه ، و أنا منه بريئ » .

وقد دل هذا الحديث على أن الله تعالى لا يقبل عملا أشرك فيه معه غيره ، فلايقبل عبادة المشرك بل يتبرأ منها ، وليس شأنه

(١) سورة الانبياء الآية ٢٥ .

شأن الذين يأخذون نصيبهم من الشئ المشترك بينهم و بين غيرهم ، فانه أغنى من كل غنى ، وأغير من كل غيور ، فلا يقبل إلا خالصاً مخلصا ، ليس لأحد فيه سهم أو نصيب.

عهد سبق فى عالم الأرواح :

أخرج أحمد عن أبى بن كعب رضى الله عنه فى تفسير قول الله عز و جل : « و إذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم(١) » قال جمعهم فجعلهم أزواجاً ، ثم صورهم ، فاستنطقهم، فتكلموا ، ثم أخذ عليهم العهد و الميثاق ، و أشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا بلى ! قال فانى أشهد عليكم السماوات السبع ، و الأرضين السبع ، و أشهد عليكم أباكم آدم « شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين » لم نعلم بهذا ، اعلموا أنه لا إله غيرى ، ولا رب غيرى ، ولا تشركوا بى شيئاً ، إنى سأرسل إليكم رسلى يذكرونكم عهدى و ميثاقى ، و أنزل عليكم كتبى ، قالوا شهدنا بأنك ربنا و إلهنا ، لا رب لنا غيرك ، و لا إله لنا غيرك .

وقد فسر أبى بن كعب رضى الله عنه الآية تفسيراً واضحاً ، وذكر أن الله سبحانه وتعالى قد صنف أولاد آدم أصنافاً. فكانت طائفة

(١) سورة الاعراف، الآية ١٧٢ .

من الأنبياء، وطائفة من الأولياء، و طائفة من الشهداء، وطائفة من الصلحاء، وطائفة من المطيعين، وطائفة من العصاة والفاسقين، و طائفة من الكفار كاليهود و النصارى، و المجوس والمشركين، و أبرز هذه الطوائف فى الصور والأجسام التى أراد خلقها، منها الوسيم و منها الدميم، و منها الأصم، و منها الأعور، و منها الأعمى، ثم وهبها النطق، ثم قال لها ألست بربكم؟ فأقرت جميعاً، و قالت بلى! أنت ربنا، ثم أخذ منها العهد و الميثاق، أن لا تشرك فى ملكه و حكمه أحداً، و أن لا تتخذ غيره رباً و إلهاً، فقبلته جميعاً و أعطت العهد و الميثاق، و أشهد الله على ذلك السماوات والأرض وأيام آدم، وقال: سيبعث الأنبياء ليذكروا بهذا العهد و الميثاق، و سيحملون الكتب السماوية، و أقرت كل طائفة على حدة على حدة بالتوحيد، و تبرأت من الشرك، فظهر من ذلك أنه لا مسوغ للاحتجاج بكلام عالم أو شيخ، أو كلام آباء و أجداد، أو ملوك و سلاطين.

و إن قال قائل: لقد نسينا فى هذه الحياة كل ما جرى فى عالم الأرواح، فلا معول على شئ منسى، ولا يصح الاحتجاج به، و هذا لا يصح، لأن الانسان كثيراً ما ينسى شيئاً، ثم يؤمن به إذا أخبره به الثقات، فكلنا ولد من بطن أمه، ولكنه

لا يذكر هذه الساعة ، ولا هذا الحادث ، فانه كان لا يعى ذلك و لم يكن يعقل فى ذلك الحين ، ولكن لما استفاض ذلك الخبر ، و تواترت به الأنباء ، و تناقلته الألسن ، آمن به ، ولم يشك فى أمه أنها له أم ، وهو لها ابن ، لا يعدل عنها عدولا ، و لا يبغى لها بديلا ، فمن عق أمه ، و لم يبر بها ، و اتخذ له أما أخرى ، كثرت القالة فيه ، و أصبح شامة فى الناس ، فان تعلل بأنه لا يذكر هذا الحادث ، و أنه لا يعتمد على مجرد الاشاعة ، ضعف الناس عقله ، وسفهوا حلمه ، واعتبروه قليل الحياء ، قليل الأدب ، فاذا كان الناس يعتمدون على حديث العامة ، و آمنوا بسببه بحقائق ، كان الأنبياء أولى بهذه الثقة ، و أجدر بالاحتجاج .

و قد تبين من هذا الحديث أنه قد سبق أمر الله بالتوحيد ، و النهى عن الشرك لكل نسمة فى عالم الأرواح ، و ما بعث الرسل ، ونزلت الصحف إلا لتبيين ذلك وتوكده ، و قد تلخص كلام الأنبياء الذين يبلغ عددهم إلى مأة ألف و أربعة و عشرين ألفاً (١) ، و علم الصحف السماوية ، التى يبلغ عددها إلى مأة و أربعة كتب (٢) فى هذه النكتة ، و هو الاعتصام بالتوحيد ، و إخلاص الدين لله ، و الابتعاد عن الشرك ، و اتخاذ غير الله

(١ - ٢) اشتهر ذلك قديماً ، و ذكره بعض المفسرين ؛ ولا نعلم له مستنداً .

حاكماً ، يتصرف فى الكون ، و اتخاذه رباً يطلب منه تحقيق مطالبه و إسعاف حاجته .

الضن بعقيدة التوحيد ، والاستقامة عليها عند الفتنة و البلاء :

و أخرج أحمد عن معاذ بن جبل قال قال لى رسول الله ﷺ : « لا تشرك بالله شيئاً و إن قتلت و حرقت » .

فيجب على المسلم أن يصبر على ما يصيبه من الأذى ، من الجن أو العفاريت ، كما يجب عليه أن يصبر على ما يصيبه من محنة أو مكروه من بشر فى حياته ولا ينبغى أن تحمله هذه الفتنة على وهن فى الدين ، أو فساد فى العقيدة فيحبط بذلك عمله ، و يخسر بذلك دينه الذى هو ملاك أمره ، و رأس ماله ، فيجب عليه أن يعتقد أن الأمر كله بيد الله ، و لكنه قد يمتحن عباده ، و ينال الأخيار أذى من الأشرار ليميز الله الخبيث من الطيب ، و يميز بين المؤمن والمنافق ، و كما أن المسلمين يكونون عرضة لأذى الكفار و الفساق ، فلا يسعهم على ذلك إلا الصبر ، و لا يرضون أن يتطرق إلى دينهم وهن ، أو يتسرب إلى عقيدتهم فساد ، كذلك قد يصيب بعض الصالحين مس من الجن ، أو خبل من الشياطين ، فلا يكون ذلك إلا باذن الله و علمه فينبغى لهم أن يصبروا على

ذلك الأذى ، و لا يخضعوا لهذه القوى بالاستسلام أو التعظيم .

و قد دل هذا الحديث على أن من مقت الشرك ، و نبذ الآلهة ، و كره تقديم النذور ، و القرابين إليها ، و حارب العادات الجاهلية ، و التقاليد الباطلة ، فأصابته خسارة فى المال ، أو رزية فى الأولاد ، أو آذاه شيطان باسم شيخ أو شهيد ، يجب عليه أن يصبر على ذلك ، و يستقيم على دينه ، و يعتقد أن الله ممتحنه فى دينه ، و كما أن الله قد يمهل الظالمين و لا يهملهم ، و يخلص المظلومين منهم ، كذلك لا محالة هو معاقب للظلمة من الجن ، و مخلص للصالحين من أذاهم .

إقبال مملوك على غير ملكه ، وولى نعمه ، قلة غيرة و عدم وفاء :

و أخرج الشيخان عن ابن مسعود رضى الله عنه قال قال رجل يا رسول الله أى الذنب أكبر عند الله ؟ قال: أن تدعو لله نداً و هو خلقك » .

و قد دل هذا الحديث على أن إشراك العبد أحداً لله تعالى فى علمه المحيط ، و قربه من كل أحد ، و قدرته على كل شئ ، فيستغيث به و يستصرخه أكبر الكبائر ، لأنه ليس فى إمكان أحد أن يسعف بحاجته مثله ، و أن يكون فى كل مكان لا يغيب عنه

شئ .

ثم إنه إذا كان الواقع أن الله تعالى هو الذى خلقنا و هو ربنا — و نحن نقر بذلك — وجب علينا أن لا نادى إلا إياه ، و لا نستعين إلا به ، و ما لنا و لغيره (١) ؟ فمن كان من جملة عبيد ملك و صنائعه ، انقطع إليه كلياً ، وأطبق عينه عن كل ملك و رئيس ، فضلا عن وضيع أو خسيس ، أ يجمل بنا أن نكون أقل غيرة ، و أضعف وفاءً من المملوك لمولاه المجازى ؟

---

(١) وقد شنع الامام عبد القادر الكيلانى على من يشرك بالله غيره ، و يعتقد فيه النفع و الضرر ، و العطاء و المنع ، فى بلاغة وقوة ، فقال : «يا معرضاً عن الحق عز وجل ، وعن الصديقين من عباده ، مقبلا على الخلق ، مشركا بهم ، إلى متى إقبالك عليهم ؟ إيش ينفعونك ؟ ليس بأيديهم ضرر و لا نفع ، و لا عطاء و لا منع ، لا فرق بينهم وبين سائر الجمادات فيما يرجع إلى الضر و النفع ، الملك واحد ، الضار واحد ، النافع واحد ، المحرك و المسكن واحد ، المسلط واحد ، المسخر واحد ، المعطى و المانع واحد ، الخالق و الرازق هو الله عز و جل » ، (الفتح الربانى ، المجلس الثالث عشر)

الموحد المذنب حرى بأن يتوب ، و تدركه رحمة الله و لطفه ، بخلاف المشرك العابد :

و أخرج الترمــذى عن أنس قال قال رسول الله ﷺ ، قال الله تعالى : « يا ابن آدم إنك لو لقيتنى بقراب الأرض خطايا ، ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئاً ، إلا آتيتك بقرابها مغفرة » .

و قد دل هذا الحديث على أن الانسان مهما أتى به من ذنوب ، و اقترف من آثام ، و إن كانت تعدل ذنوب أكبر العصاة و المجرمين كفرعون و هامان ، ولكنه سلم عن الاشراك بدل الله سيئآته حسنات ، و آتاه بقراب هذه الذنوب مغفرة ، فظهر أن الذنوب تتضاءل أمام عقيدة التوحيــد ، و أن بركتها تغشى المذنب فتمحو خطاياه ، كما أن للشرك شؤماً و ظلمة تطغى على جميع الحسنات ، و تحبط جميع العبادات ، فانه إذا وقر فى قلب المؤمن ، و استقر أنه لا إله إلا هو ، لا رب سواه ، ولا ملجأ و لا منجا منه إلا إليه ، و أنه لا معقب لأمره ، و لا راد لقضائه ، و ليس له وكيل و لاشفيع إلا باذنه ، فقد تطهر من أوضار الشرك ، فما صدر عنه من ذنب ، فهو من مقتضى البشرية ، و نتيجة النسيان ، والسهو ، و يستولى على قلبه الخوف من هذه الذنوب ، و ينال منه كل منـــال ، و من الطبيعى أن

يعاف هذه الذنوب و يستوحش منها ، حتى تضيق عليه الأرض بما رحبت ، وتضيق عليه نفسه ، فلا تصفو له الحياة ، ولا يطيب له طعام وشراب ، وكل من كان هذا شأنه أظلته رحمة الله ولطفه، و كلما أكثر من الذنوب اشتـــدت به الكآبة و أحاطت به الوحشة ، فمن رسخت قدمه فى التوحيـد عملت ذنوبه ما لا تعمل عبادة غيره ، فكان الفاسق الموحـــد خيراً من المتقى المشرك ألف مرة ، كما أن الوفى المقصر من الرعية كان خيراً من الثائر المتملق، لأن الأول نادم على تقصيره ، و الثانى معجب بخديعته و نفاقه ، مدل بنفسه ، يحسب أنه يحسن صنعا .

* * *

الفصل الثـانى
فى
رد الاشراك فى العـلم

الحـواس الخمس الظاهـرة ، والعقل ، منحة إلهية عامة للبشر :

قال الله تعالى : « وعنده مفاتح الغيب لايعلمها إلا هو (١) » اعلم أن الله تعالى قد وهب عبـاده قوى و وسائل للاطلاع على أمور ظاهرة ، فرزقهم العين ليبصروا ، والأذن ليسمعوا ، والأنف ليشموا ، و اللسان ليذوقوا ، و اليـد ليجسوا ، و العقل ليفهموا و يتبصروا ، وقد مكنهم من هذه الطرق و الوسائل ، و ملكهم إياها ليستخدموها فى مآربهـم و حاجاتهم ، فكلما أراد الانسان أن يبصر فتح عينه و إلا أطبقها ، و إذا أراد أن يتذوق شيئاً وضعه فى فمه ، إن شاء فعل و إن لم يشأ لم يفعل ، فكأنما أعطاهم مفاتيح لاكتشاف هذه الأشياء و الاطلاع عليها ، و من كان عنده مفتاح كان القفل خاضعاً له ، تابعاً لارادته ، إن شاء فتح ، و إن لم يشأ

(١) سورة الأنعام الآية ٥٩ .

لم يفتح ، فكان الاطلاع على الأمور الظاهرة فى تصرف النـاس ، وكانوا أحراراً فيه ، يتصرفون فيه كما يشاؤن .

علم الغيب خاص بالله تعالى ، و وراء طور البشر :

و هذا شأن الاطلاع على الغيب فيما يختص بالله تعالى ، فهو يملكه و يتصرف فيه كما يشاء ، و هى صفته الدائمة ، و لم يجعل لولى أو نبى ، أو جنى أو ملك ، أو شيخ أو شهيد ، أو إمام ، أو سليل إمام(١) ، ولا لعفريت و لا لجنية أن يطلعوا على الغيب متى شاؤا ، إن الله قد يطلع من يشاء على ما يشاء متى يشاء ، لا يجاوز علمه ما أراد الله اطلاعه عليه مثقال ذرة ، وكان ذلك خاضعاً لارادة الله تعالى ، لا لهواهم .

و قد وقع للنبى ﷺ مراراً أنه رغب فى الاطلاع على شئ، و لم يتيسر له ذلك ، فلما أراد الله ذلك أطلعه عليه فى طرفة عين، و قصة الافك مشهورة معلومة للجميع ، و قد أشاع المنـافقون عن سيدتنا عائشة ما هى عنه بريئة ، و قد كبر ذلك على النبى ﷺ ، وبلغ منه كل مبلغ ، وقضى أياماً يفحص فيها عن الأمر فلم تنكشف عليه الحقيقة ، و بقى أياماً مشغول الخاطر ، فلما أراد الله أن تنجلى

(١) يعتقد كثير من الشيعة ، أن الائمة الاثنى عشر كانوا يعلمون الغيب ويطلعون على الخفيات ، وقد توارثوه كابراً عن كابر . وأباً عن جد .

عنه هذه الغمة ، و تنكشف له الحقيقة أخبره بأن المنافقين هم الكاذبون ، و أن عائشة رضى الله عنها بريئة من هذه التهمة ، فعلم من ذلك يقيناً أن مفتاح الغيب بيد الله تعالى ، لم يمكن منه أحداً ، و لم يملكه إياه ، و ليس له خازن بل هو الذى يفتح هـذا القفل بيده ، فيهب من يشاء ما يشاء ، لا يمسك يده أحد ، ولا يمنعه عن ذلك أحد .

من ادعى لنفسه ، أو اعتقد فى أحد علم الغيب بالاستقلال و الدوام كان كاذباً آثماً :

و قد تبين من هذه الآية أن من ادعى علماً يعرف به الغيب متى شاء و أن الاطلاع على الأمور المستقبلة ميسور له ، و تحت تصرفه ، كان كذاباً ، مدعياً للألوهية ، و من اعتقد ذلك فى نبى أو ولى ، أو جنى أو ملك ، أو إمام أو ابن إمام ، أو شيخ أو شهيد ، أو منجم أو رمال ، أو جفار ، أو من يبحث عن الفال فى كتاب (١) ، و غير ذلك ، أو كاهن أو سادن ، أو عفريت

---

(١) اعتاد الناس فى الهند و غيرها أنهم إذا غـم عليهم أمر ، وكانوا فى حيرة وتردد ، يقدمون رجلا و يؤخرون أخرى ، فتحوا كتاباً يعتقدون فى مؤلفه الخير ، و شفوف الروح ، فيفتحونه من غير تخير، فما واجههم فى الصفحة التى فتحوها ✪

أو جنية كان مشركاً ، منكراً لهذه الآية .

و من وسوست له نفسه ، و سول له الشيطان أنه قد يتحقق ما يخبر به منجم ، أو رمال ، أو كاهن ، أو محترف بالاخبار بالسعد و النحس ، فيدل ذلك على علمه للغيب ، كل ذلك باطل ، فان كثيراً ما تخطئ أخبارهم و يقع عكسها ، فثبت من ذلك أنه لا صلة له بعلم الغيب ، و أنه ليس فى تصرفهم ، و إنما يتكلمون رجماً بالغيب ، و قد يصيبون ، وقد يخطئون ، و هذا هو الشأن فى الاستخارة و الكشف ، و من يبحث عن الفال فى المصحف .

و بالعكس من ذلك فانه لا خطأ فى الوحى ، و الوحى لا يملكون من أمره شيئاً ، و إنما ذلك إلى الله ، إذا شاء أوحى إليهم بما شاء ، و إذا لم يشأ لم يوح إليهم ، لا أثر لرغبتهم فى ذلك ، يقول الله تعالى : « قل لا يعلم من فى السماوات و الأرض الغيب إلا الله ، و ما يشعرون أيان يبعثون (١) » فعلم أنه لا سلطان لأحد

⊛ تفاءلوا به ، و بتوا الأمر ، و قد كثر الاعتماد فى ذلك فى إيران ، و شبه القارة الهندية ، على « ديوان حافظ » الشاعر الايرانى الغزلى الصوفى ، المتوفى سنة ٧٩٣هـ ، ويسمون هذا الاستفتاء « برؤية الفال » .

(١) سورة النمل الآية ٦٥ .

على الغيب ، و دليله أن جميع المؤمنين يؤمنون بأن الساعة آتية لاريب فيها ، ولكنهم لا يعلمون موعدها بالتحديد ، يقول الله تعالى: « إن الله عنده علم الساعة و ينزل الغيث و يعلم ما فى الأرحام ، و ما تدرى نفس ماذا تكسب غداً ، و ما تدرى نفس بأى أرض تموت ، إن الله عليم خبير (١) » .

الأمور المستقبلة التى لا تعلم بالقطع :

فاذا كان هذا شأن الساعة التي هى من الأمور القطعية ، ومن ضروريات الدين ، لا يعلمها أحد ، فما ظنك بغيرها من الأخبار و الحوادث كالفتح و الهزيمة ، و المرض و الصحة ، فانها لم تشتهر اشتهار القيامة ، و لم تكن منزلتها من القطع و اليقين كمنزلة القيامة ، كذالك لا يعرف أحد متى ينزل المطر ، مع أن الفصول معينة ، و للأمطار فصل و إبان ، تجيئ فيه الأمطار فى غالب الأحيان ، و قد تشتد إليه حاجة البشر ، ويتمناه الأنبياء والأولياء ، والملوك ، و الحكماء فى بعض الأحيان ، و يرغبون فيها أشد الرغبة ، فان كان إلى العلم به سبيل اهتدى إليه بعض الأفراد ، أما الأشياء التى ليس لها فصل معين ، ولا يتفق الناس على الحاجة إليه ، أو الرغبة فيه ، كأن يموت رجل أو يعيش ، أو أن يرزق أحد ولداً ، أو يغنى

(١) سورة لقمان الآية ٣٤ .

الانسان أو يفتقر ، أو أن ينتصر أحد فى حرب أو ينهزم أحد ، فلاسبيل إلى علمها لأحد ، وكذلك ما كان فى الأرحام من نطفة ، فلا يعلم أحـــد هل هى واحدة أوتوأم ، ذكر أو أنثى ، كاملة أو ناقصة ، دميمة أو وسيمة ، مع أن الأطباء قد أفاضوا فى ذكر أسبابها ، و لكنهم لا يعلمون شيئاً بالاختصاص .

العلم بمكنونات الضمائر ، وهواجس الخواطر ليس بميسور دائمـــاً :

وإذا كان هذا شأن أمور تظهر أماراتها ، وتعرف مقدماتها ، فكيف بما يضمره الانسان من أفكار وخواطر ، وإرادات ونيات ، و إيمان و نفاق ، و هى فى بطون الضمائر ، و طيات الصدور ، و إذا لم يعلم أحد ما مصيره غداً ، و ما هو فاعله ، (و ما تدرى ماذا تكسب غداً) فكيف يعلم حال غيره؟ وإذا لم يعلم مكان موته (وماتدرى نفس بأى أرض تموت) فكيف يعلم أن يموت فلان ومتى يموت؟

المدعون المحترفون بالاخبار عن الأمور الغيبية :

و جملة القول : إن الذين يدعون الغيب ، أو يدعون الكشف (المطلق الدائم) و منهم من يعلم طريق الاستخارة التى لاتخطئ قط (١) ومنهم من يستخرج الأخبار من تقويم النجوم ، أوالرمل،

(١) أسرف الشيعة الامامية وبعض المدعين للتصوف فى الاستخارة ←

و منهم من يستفتح بعلم الرمل ، و منهم من يطوف فى الناس ، و فى يده كتاب للبحث عن الفال ، فان كلهم كاذبون مزورون ، و يجب على المسلم الصادق أن يبتعد عنهم ، و لا يقع فى شباكهم.

أما من لم يدع علم الغيب ، و لا يزعم أن له سلطاناً عليه ، بل يقول إن جل الأمر أنه قد يطلع على بعض الأشياء بحول الله تعـــالى ، و ليس ذلك فى يدى و مكنتى ، و ليس لى أن أعلم ما أريده ؟ و متى أريده ؟ إنما هى لمحات ونفحات ، يجود الله بها على ، فانما يمكن ذلك ، و من الناس من يكون صادقاً فى قوله ، و منهم من يكون مزوراً أو محترفاً.

نداء الأموات من بعيد أو قريب للدعاء إشراك فى العلم :

و قال الله تعالى : « ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة و هم عن دعائهم غافلون (٢) » و قد

** واتخذوا لها طرقاً مختلفة و يعتمدون عليها فى توافه الأمور و الحركات والسكنات ويعتقدون أنها لا تخطئ أبداً ، وإليهم أشار المؤلف ، أما الاستخارة المسنونة التى كان النبي ﷺ يعلمها أصحابه فهى من باب طلب الخير و هى نوع من الدعاء و الاستفتاح .

(٢) سورة الأحقاف الآية ٥ .

دلت هذه الآية على أن المشركين قد أمعنوا فى السفاهة ، فقد عدلوا عن الله القادر العليم ، إلى أناس لا يسمعون دعاءهم ، و إن سمعوا ما استجابوا ، و هم لا يقدرون على شئ ، فظهر من ذلك أن الذين يستغيثون بالصالحين الذين كانوا فى الزمن السابق من بعيد ، و قد يكتفى بعض الناس فيقولون : يا سيدنا أدع الله لنا يقض حاجتنا ، و يظنون أنهم ما أشركوا ، فانهم ما طلبوا منهم قضاء الحاجة ، و إنما طلبوا منهم الدعاء (٢) و هذا باطل ، فانهم و إن

---

(١) قد شاع فى الناس فى العصور الأخيرة الاستمداد بأهل القبور و طلب الدعاء منهم ، و قد وسع فيه بعض المشايخ اعتماداً على أنه استفادة من روحانية المقبور وسؤال منه للدعاء له ، و قد منعه المحققون من الفقهاء و الصوفية سدا للذريعة لأن الأمر دقيق و موهم و التميز بين المقصود وغير المقصود صعب وعسير ، و يخشى على العامة أن يتورطوا بذلك فى الشرك والاستعانة بالموتى استقلالا ، ولأن الأصل فى الاسلام و المطلوب هو الاستعانة بالله و اللجوء إليه فى غير الأمور الحسية و العادية .

وقد وقع هذا المحذورمنذ زمن بعيد وأنكر عليه علماء العصر فقال العلامة الشيخ عبدالحق بن سيف الدين البخارى الدهلوى المحدث الفقيه الصوفى المتوفى سنة ١٠٥٢ هـ وهو ممن يرى التوسع فى ++

لم يشركوا عن طريق طلب قضاء الحاجة ، فانهم أشركوا عن طريق النداء ، فقد ظنوا أنهم يسمعون نداءهم عن بعد ، كما يسمعون نداءهم عن قرب ، و كان ذلك سواءاً فى حقهم ، و لذلك نادوا من مكان بعيد ، مع أن الله سبحانه و تعالى قال : « و هم عن دعائهم غافلون (٢) » .

** هذه المسائل ودافع فى كتبه عن الاستمداد بأهل القبور : يقول رحمه الله فى أشعة اللمعات (حاشية المشكاة الفارسية) « نعم إذا اعتقد الزائرون فى أهل القبور التصرف والاستبداد والقدرة استقلالا من غير توجه إلى الله وتضرع إليه كما يعتقد العوام والجهال و أهل الغفلة و يباشرون الحرام و الأعمال المنهية عنها فى الدين من تقبيل القبر و سجود له و الصلاة إليه و غير ذلك مما ورد النهى و التحذير عنه فى الشرع فهو ممنوع وحرام واعتقاد فاسد » (أشعة اللمعات كتاب الجهاد قصة قتلى بدر)

ويقول العلامة الشيخ عبد العزيز بن ولى الله الدهلوى المتوفى ١٢٣٩ هـ : « قد أفرط الناس من هذه الأمة فى باب الاستعانة بالأرواح الطيبة ، فما يفعله الجهلة و العوام و ما يعتقدون لها من استقلال فى كل عمل فهو من غير شك شرك جلى » (مجموع فتاوى الشيخ عبد العزيز صفحة ١٢١)

(١) سورة الأحقاف الآية ٥ .

نفي القدرة المطلقة و الاستقلال بعلم الغيب عن النبي ﷺ :

و قال الله تعالى : « قل لا أملك لنفسي نفعاً و لا ضراً إلا ما شاء الله ، و لو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء ، إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون (١) » .

وقد خاطب الله في هذه الآية سيد الأنبياء ﷺ ، وهو الذي بهرت معجزاته ، ومنه تعلم الناس أسرار الدين ، وغوامض الأمور ، و باتباعه واقتفاء آثاره نال من نال الشرف عند الناس ، والمنزلة عند الله ، فأمره بأن يخبر الناس بخبره ، حتى يقيس به النـــاس غيره ، فاذا كان هو لا يقدر على شئ و لا يعلم الغيب ، فلايملك لنفسه نفعاً ولاضراً ، وإذا كان يعلم الغيب عرف عواقب الأمور ، فاذا عرف عن أمر أنه يؤول إلى نجاح أقدم إليه ، وأقبل عليه ، و إذا عرف أنه لا خير فيه ، أمسك عنه و زهد فيه (٢) .

وقد نفى النبي ﷺ عن نفسه الشريفة القدرة المطلقة ، والعلم بالغيب ، إنما أكرمه الله بالرسالة ، وشرفه بالنبوة ، والنبي مكلف

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٨٨ .

(٢) صح من قوله صلى الله عليه وسلم : « ولو أني استقبلت من أمري ما استدبرت ما سقت الهدى معي إلخ » (صحيح مسلم كتاب الحج ص ٣٩٠ ج ١ .

بالانذار والتبشير لا غير ، ينذر على السيئات من سخط الله وعذابه ، و يبشر الذين يعملون الصالحات أن لهم من الله أجراً حسناً ، و لا ينفع الانذار و التبشير إلا أهل الايمان (١) ، و ليس من شأن النبي أن يخلق الايمان فى قلوب الناس ، إنما هو فعل الله .

سر شرف الأنبياء ، و كرامة الأولياء ، ليس فى التصرف المطلق ، والعلم المستقل بالغيب :

و قد دلت هذه الآية على أن الأنبياء والأولياء ، إنما شرفهم الله على الخلق ، و علت منزلتهم عند الله ، لأنهم يدعون الناس إلى الله ، و يرشدون إلى طرائق الحق ، و لأنهم يعرفون ما هو صالح الأعمال ، و ما هو فاسدها ، فيعلمون الناس ذلك ، و ينفع الله بكلامهم ، فينفذ فى القلب ، ويهتدى الناس إلى الصراط المستقيم ، و ليس شرفهم ، لأن الله سبحانه و تعالى منحهم قدرة التصرف فى العالم ، فيميتون من يشاؤن ، أو يرزقون من يشاؤن الأولاد ، أو يفرجون الكرب ، و يكشفون الغمم ، ويحققون أمانى الناس ، و يقضون حاجاتهم ، و يجعلون من يشاؤن منتصراً أو منهزماً ، أو غنياً أو فقيراً ، أو ملكاً أو أميراً ، أو وزيراً ، و ينتزعون

---

(١) يقول الله عز وجل : « إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم » (سورة يس الآية ١١)

لمن يشاؤن ملكاً أو إمارة ، أو يخلقون فى قلب من يشاؤن الايمان ، أو ينزعونه منه ، أو يشفون المريض ، أو يسلبون منه الصحة ، قد تساوى فى ذلك جميع العباد ، فكلهم عاجزون ضعفاء لا يقدرون على شئ .

و كذلك ليس شرفهم ، و لا يمتازون عن الناس بأن الله سبحانه و تعالى مكنهم من علم الغيب ، و بسط لهم فيه ، فيطلعون على خواطر النفوس متى شاؤا ، و يطلعون على شؤون من غاب إذا شاؤا ، فيعرفون هل هو حى أم مات ، وفى أى مدينة هو ، و ما تكتنفه من أحوال ، و ما يتقلب فيه من نعيم أو بؤس ، و يعرفون ما هو كائن غداً ، فيعرفون أن فلاناً سيرزق ولداً ، و فلاناً لا يولد له ، و فلاناً يربح فى التجارة أو يخسر ، و هل يقدر لفلان الانتصار فى الحرب ، أوسياق الهزيمة ، فقد تساوى فى ذلك جميع العباد كبارهم و صغارهم ، هم عن ذلك فى عمى ، إلا ما ينقل عن بعض العقلاء شئ من الحدس ، أوتقدير مصدره قرائن أو العقل السليم ، فيتفق ذلك مع الواقع ، كذلك هؤلاء السادة و العظماء قد يحكمون على شئ بعقل أو قرينة ، فيتحقق فى بعض الأحيان ، ويتخلف فى بعض الأحيان ، أما ما كان عن طريق الوحى و الالهام ، فهو لا يقاس على ذلك ، و لا يتطرق إليه خطأ ،

و لا ترتقى إليه شبهة .

استنكار النبي ﷺ لنسبة علم الغيب إليـــه ، حتى فى الشعر :

أخرج البخارى عن الربيع بنت معوذ بن عفراء ، قالت : جاء النبي ﷺ فدخل حين بنى على ، فجلس على فراشى كمجلسك منى ، فجعلت جويريات لنا يضربن بالدف ، ويندبن من قتل من آبائى يوم بدر ، إذ قالت إحداهن ، « وفينا نبي يعلم ما فى غد » فقال : دعى هذه ، و قولى بالذى كنت تقولين .

و قد دل هذا الحديث على أنه لا يصح أن يعتقد الانسان فى نبي أو ولى ، و إمام أو شهيد ، أنه يعلم الغيب ، حتى لا يصح هذا الاعتقاد فى حضرة الرسول صلوات الله و سلامه عليه ، و لا يصح أن يمدح بذلك فى شعر أو كلام ، أو خطبة ، أما ما اعتاده الشعراء من المبالغة و الاسراف فى مدح الرسول ﷺ أو غيره من الأنبياء و الأولياء ، والصلحاء والمشايخ ، أوالأساتذة ، فتخطوا فى ذلك حدود الشرع ، و نعتوهم فى بعض الأحيان بما يليق بالله تعالى ، فاذا عورضوا قالوا : إن الشعر جماله المبالغة ، و كل شعر تجرد عن المبالغة فهو بالنثر أشبه منه بالشعر ، ولكن لا يصح هذا الاعتذار ، فان النبي ﷺ نهى جوارى الأنصار عن أن ينشدن

شعراً نسب إليه فيه علم الغيب ، فما ظنك بعاقل يقول مثل هذا الشعر أو يستحسنه ؟

أخرج البخارى عن عائشة رضى الله عنها قالت : من أخبرك أن محمداً ﷺ يعلم الخمس التى قال الله تعالى : « إن الله عنده علم الساعة (١) » فقد أعظم الفرية .

و هذه الخمس هى التى ذكرها الله فى آخر سورة لقمان ، قال : « إن الله عنده علم الساعة و ينزل الغيث ، و يعلم ما فى الأرحام ، و ما تدرى نفس ماذا تكسب غداً ، و ما تدرى نفس بأى أرض تموت ، إن الله عليم خبير(٢) » .

أخرج البخارى عن أم العلاء قالت : قال رسول الله ﷺ : و الله لا أدرى و أنا رسول الله ما يفعل بي و لا بكم .

و دل الحديث على أن النبي أو الولى لا يعرفان من حالهما ، ومن أحوال غيرهما الغيبية إلا ما أطلعهما الله عليه عن طريق الوحى أو الالهام ، و أخبرهما بأن الأمر الفلانى سيؤول إلى نجاح ، وأن الأمر الفلانى سيؤول إلى إخفاق ، وهذا شئ مجمل ، ليس بيدهما أن يطلعوا على أكثر من ذلك ، أو يعرفوه مفصلا ،

---

(١) (٢) سورة لقمان الآية ٣٤ .

الفصل الثالث

فى رد الاشراك فى التصرف

إطباق أهل كل عصر على إثبات القدرة المطلقة ، و القوة القاهرة لله تعالى :

قال الله تعالى : « قل من بيده ملكوت كل شئ ، و هو يجير و لا يجار عليه إن كنتم تعلمون ، سيقولون لله ، قل فأنى تسحرون (١) » .

فاذا ثبت كما نطقت به الآية أن العقول السليمة ، و الفطر المستقيمة قد أجمعت على إثبات القدرة المطلقة التى ليست فوقها قدرة ، والتصرف الحر الذى لا يزاحمه تصرف ، والأمر القاهر الذى لا ينسخه أمر ، و ليس له استئناف و لا مرافعة ، و لا تعديل و لا معارضة لله تعالى ، فمن والاه وتولاه ، فليس لأحد فى الدنيا أن يعتدى عليه ، أو يمسه بسوء ، و من عاداه و سخط

(١) سورة المؤمنون ٨٨ — ٨٩ .

عليه ، فليس لأحد فى الدنيا أن يحميه أو يدافع عنه ، و إذا سئل أشد الناس إمعاناً فى الجهالة أو الجاهلية عن ذلك ، كان جوابه كما ذكره القرآن بالحرف الواحد ، و لم يسعه إلا أن يجيب بأن الله هو المتفرد بهـذه القدره المطلقة ، و التصرف المطلق ، و الأمر القاهر الذى ليس فوقه أمر ، فاذا كان الأمر كذلك ، كان طلب قضاء الحاجات من غير الله ضرباً من الخيال ، و طلباً للمحال .

عقيدة أهل الجاهلية فى الله ، و حقيقـة شركهم :

و قد تحقق من هذه الآية الكريمـة أن الكفار فى عهد الرسول ﷺ لم يكونوا يرون لله عديلا يساويه فى الألوهية والقدرة، و فى الخلق ، و لكنهم كانوا يعتقدون أن آلهتهم و الأصنـام التى كانوا يعبدونها ، هم وكلاؤهم عند الله ، و بذلك كفروا ، فمن أثبت فى عصرنا هـذا لمخلوق التصرف فى العالم ، و اعتقد أنه وكيله عند الله ، ثبت عليه الشرك ، و لولم يعدله بالله ، ولم يثبت له قدرة تساوى قدرة الله .

تحذير المسلمين عن تقليد المشركين فى نبيهم و أوليـاء أمتـه :

قال الله تعالى : « قل إنى لا أملك لكم ضراً و لا رشداً ،

قل إنى لن يجيرنى من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحداً (١) »

وقد حذر الله فى هذه الآية المسلمين من أمة محمد ﷺ من أن تغرهم نفوسهم فيقولوا : « إن نبينا ﷺ له دالة عند الله ، يضر و ينفع ، و يدفع و يمنع ، و يفعل ما يشاء ، و نحن فى أمته ، فنحن نأوى إلى ركن شديد ، و حرز حريز ، فان وكيلنا عند الله، وشفيعنا إليه ، من الله بمكان ليس لأحد ، فلاخوف علينا ولا خطر، و بذلك يسترسلون فى الخيال ، و يتوسعون فى الأمانى ويستخفون بالعمل ، ولذلك أمرالله نبيه بأن يخبر الناس أنه لا يملك لهم ضراً ولارشداً، وأنه ـ وهو سيدالأنبياء ـ لن يجيره من الله أحد ، فكيف يستطيع أن يجيرهم من الله، ويمنعهم من عذاب الله وعتابه ؟

و بذلك ظهر ضلال أولئك العامة ، و الغوغاء من الناس الذين ينسون الله ، و يستخفون بأحكامه ، معتمدين على نصرة المشايخ و الشهداء ، فاذا كان نبى الله ﷺ يخاف الله ، و لا يرى له ملجأ إلا رحمة الله، فكيف بمن دونه من أفراد أمته، وأتباعه؟

عجز الأنبياء وخواص الأمة عن التصرف فى العالم :

و قال الله تعالى : « و يعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقاً من السماوات و الأرض شيئاً و لا يستطيعون (٢) »

يقول بعض العامة أن الأنبياء ، و الأولياء ، و الأئمة ،

(١) سورة الجن ٢١ — ٢٢ . (٢) سورة النحل الآية ٧٣ .

و الشهداء يقدرون على التصرف فى العـــالم ، و لـكنهم راضون بقضاء الله وقدره ، قد أدبوا نفوسهم و ألجموها ، فتواضعوا لعظمة الله تعالى ، و إلا إذا شاؤا قلبوا هذا العالم رأساً عـــلى عقب ، و لـكنهم أمسكوا عن ذلك تعظيما للشرع ، و أدباً معه ، و قد نفت هذه الآية هذا الزعم ، فبينت عجزهم و ضعفهم ، و أنهم لا يملكون للناس رزقاً من السماوات و الأرض ، فليس لهم سلطان على الأمطار ، و لا على السحاب و الريح ، و ليس لهم سلطان على الأرض فتخرج زهرتها ، و تلفظ خزائنها ، و إن كل ذلك فى قدرة الله و قبضته .

و قال الله تعالى : « و لا تدع من دون الله ما لا ينفعك و لا يضرك ، فان فعلت فانك إذاً من الظالمين(١) » .

و من السفاهة و الظلم أن يعطى الانسان العاجز الضعيف ما كان من حق القادر القوى ، و يعاملهما معاملة سواء .

عادات الملوك والأمراء فى قبول الشفاعة ، و أنواع الشفعاء ، و أهـــل الوجاهة :

و قال الله تعـالى : « قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السماوات و لا فى الأرض ، و مالهم

(١) سورة يونس الآية ١٠٦ .

فيهما من شرك ، و ما له منهم من ظهير، ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له حتى إذا فزع عن قلوبهم ، قالوا ماذا قال ربكم ، قالوا الحق ، و هو العلى الكبير (١) » .

قد جرت العادة أن من يقضى حاجة من يستصرخه ، و يغيثه ، إما يكون سيداً وصاحب الأمر ، وإما يكون شريكا ، له سلطان عليه ، أو دالة عنده ، فملوك الأرض ينزلون عند رغبة أمرائهم ، ويحققون طلبهم ، فانهم أعوانهم ، ودعائم ملكهم ، فاذا سخطوا أو حقدوا عليهم تزلزل ملكهم ، و اضطرب أمرهم ، وإما أن يشفع إلى الملك أحد المقربين إليه ، والذين لهم حظوة عنده ، فيحقق رغبتهم طوعاً و كرها ، و قد يفعل ذلك من غير رضا و طواعية نفس ، شأن بنت من بنات الملك المدللة ، أو إحدى زوجاته الحظيات ، فلا يستطيع الملك أن يرفض شفاعتها فيقبلها ،

لا يقاس الله سبحانه و تعالى على ملوك الدنيا فى قبول الشفاعات ، وإرضاء أهل الوجاهة و النفوذ :

أما أولئك الذين يستغيث بهم هؤلاء الجهال ، ويطلبون منهم قضاء حاجاتهم ، فلا يملكون حبة من شعير ، و لا شيئاً من نقير أوقطمير فى السماوات والأرض ، ومالهم فيهما من شرك ، وليسوا

---

(١) سورة سبأ الآيتان ٢٢ - ٢٣ .

من دعائم ملك الله ، و لا عضده الأيمن ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، حتى يقبل شفاعتهم اضطراراً و استسلامـاً ، إنهم لا يملكون أن يشفعوا إلا باذنه ، و لا يستطيعون أن يحققوا رغبات المستشفعين بقوة أو قهر ، بل بالعكس من ذلك قد بلغ بهم العجز و الفقر إلى أنه إذا توجه إليهم أمر من الله أخذتهم المهابة و فقدوا رشدهم ، و يمنعهم الأدب و الفزع عن مراجعة الله ، و استيضاح ما خوطبوا به و أمروا ، بل أقبل بعضهم على بعض يتساءلون عن الحقيقة ، فاذا تبين لهم الأمر ، ما زادوا على أن يقولوا: آمنا و صدقنا ، فضلا عن معارضة الملك القاهر ، و عن الدفاع عن أحد ، أو الادلاء بدليل أو برهان .

أنواع الشفاعة التى لا مجال لها عند الله :

و هنا يحسن التفطن لنكتة دقيقة ، و التأمل فيها ، وهى أن كثيراً من الناس قد اعتمدوا على شفاعة الأنبياء ، والأولياء اعتماداً زائداً ، وقد أساؤا فهم معنى الشفاعة ، فأدى ذلك إلى تناسى الله عز و جل ، والتشاغل عنه بخلقه ، فلتعرف حقيقة الشفاعة فى ضوء نصوص الكتاب و السنة ، و ما أثبتته الشريعة الاسلامية .

[لقد تعود الملوك ، و الأمراء ، ورجال الدنيا أنواعاً من الشفاعة ، يلجئون إليها عند الضرورة لمصالحهم الشخصية ، أومصلحة

من مصالح البلاد و الرعية ، نذكرها أولا ، حتى يعرف القارئ الفطن الفرق بين هذه الأنواع من الشفاعة ، و بين الشفاعة التى أثبتها القرآن ، و بضدها تتبين الأشياء]

منها أن رجلا تحققت عليه السرقة ، فشفع له أمير ، أو وزير إلى الملك ، فأطلقه الملك و صفح عنه ، و لذلك أسباب :

منها أن الملك يريد أن يعاقب السارق ، والقانون يأمر بذلك ، و هو يستحق العقوبة ، و لكن الملك عدل عن رغبته ، و صفح عن جريمة هذا المجرم ، لأن هذا الأمير هو دعامة قوية من دعائم ملكه ، و هو جمال مملكته ، و زينة بلاده فيعرف الملك أن الأفضل فى هذا المقام أن يملك نفسه و يقهر غضبه ، و يصفح عن فرد ارتكب جريمة السرقة ، فانه إذا أسخط هذا الأمير ورفض طلبه ، اختلت الأمور ، و استشرى الفساد فى مملكته ، وفقدت الشئ الكثير من بهائها و مهابتها ، وهذا النوع من الشفاعة يسمى شفاعة الوجاهة ، و معلوم أنه لا مساغ لهذا النوع من الشفاعة عند الله ، و لا مجال له ، فمن رجا من نبي أو ولى ، أو إمام أو شهيد ، أو ملك أو شيخ مثل هذه الشفاعة ، و نظر إليه كشفيع تقبل شفاعته لا محالة لعظم جاهه ، و علو منزلته ، فقد أوغل فى الشرك و الجهالة ، فانه لم يقدر الله قدره ، و ما شم رائحة العلم

و المعرفة ، فان الله هو رب الأرباب ، وملك الملوك ، قد وسع كرسيه السماوات و الأرض ، و إنه يقدر أن يخلق بمجرد الأمر ، وكلمة « كن » آلافاً مؤلفة من الأنبياء و الأولياء ، و الجن و الملائكة ، كأول ملك ، و أول نبي ، فلا أفضل فى الملائكة من جبريل ، و لا أفضل من الأنبياء من محمد ﷺ ، و إذا شاء قلب هذا العالم رأساً على عقب ، و من الثريا إلى الثرى (١) ، و أنشأ

---

(١) و قد خشع أمام هذه العظمة و الجبروت والغنى عن الخلق أجمعين ، كبار الأولياء والعارفين ، فأبدوا ذهولهم وخشيتهم أمام هذه الارادة القاهرة ، و من العارفين المحقق الكبير شيخ مشايخ الهند الشيخ شرف الدين يحيى المنيرى البهاري ، المتوفى سنة ٧٧٢هـ ، فيقول فى إحدى رسائله التى كتبها إلى أحد أصحابه :

يا أخى ! نحن أمام جبار قهار ، و هو القوى القادر على أن يحول الجنة ناراً و عذاباً ، و النار جنة و نعيماً ، و برداً و سلاماً ، يخرج الكنيسة من الكعبة ، و الكعبة من الكنيسة ، فكيف تعيش آمناً مطمئناً ، و كيف لا تتقطع كبدك و يذوب قلبك خوفاً و وجلا ، كن حذراً خائفاً فى كل حين ، حتى لا تظهر يد القدرة الالهية التى لا تتقيد بالعلل والأسباب من ستار الغيب فتحير الألباب ، إن قهره لا يتقيد ←

عالماً جديداً مكان هــذا العالم ، لأن كل شئ يظهر إلى الوجود بمجرد أمره ، لا يحتاج فى ايجاد شئ ، أوتحقيق أمر إلى الأسباب و الوسائل ، أو المواد الأولية ، و إذا كان جميع الخلق أولهم و آخرهم ، و إنسيهم و جنيهم على قلب أفضل ملك ، أو أفضل نبي ، ما زاد ذلك فى ملكه و بهائه ، و إذا كانوا كلهم على هيئة شيطان ، أو دجال لم ينقص ذلك من بهاء ملكه ، فهو فى كل حال أعظم من كل عظيم ، وقاهر الملوك والسلاطين لا يصيبه أحد بنفع و لا ضرر ، أو زيادة و نقص (١) .

←← بسبب ، كما أن لطفه لايتقيد بعلة ، إن لطفه وكرمــه يطلب عاصياً ليغسله و يطهره بماء العفو والمغفرة حتى تفجر ينابيع هذا العطف من قلبه ، و يفيض به صدره ، كما يطالب قهره بعض الأحيان تقياً صالحاً ليسود وجهه بدخان الهجر والفراق ، و نار النقمـــة و السخط ، حتى يتحقق و يتبين للعالمين أنه تعالى شأنه غنى عن الأسباب ، إنه يأتى بالنبى من بطن الشقى تارة ، و يخرج الشقى من صلب النبى تارة أخرى .

(١) أخرج مسلم بسنده عن أبى ذر قال : قال رسول الله ﷺ فى ما يروى عن الله تبارك وتعالى : يا عبادى إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ، و لن تبلغوا نفعى فتنفعونى ، يا عبادى ★

و النوع الثانى أن يقوم أحد من أبناء الملك ، أو عقيلاته ، أو زوجاته ، أو من أولع بحبه الملك ، بشفاعة هـــذا السارق ، و يحول دونه و دون تنفيذ العقوبة إرهاقاً ، أو إجلالا ، فيضطر الملك إلى العفو عن هذا المجرم ، بدافع من حب هذا الشافع و غرامه ، و هذا يسمى شفاعة المحبة ، فان هذا الملك رأى أن كظم الغيظ فى هذا المحل ، و العفو عن مجرم واحد خير مما يصيبه من الكمـد ، و الـكآبة التى تحيط به ، و تكدر صفو حياته ، إذا سخط عليه هذا المحبوب أو الحظى ، و عاتبه ، و أعرض عنــه ،

★ لو أن أولكم وآخركم ، و إنسكم و جنكم كانوا على أتق قلب رجل واحد منكم ، ما زادوا ذلك فى ملكى شيئاً ، ياعبادى لو أن أولكم و آخركم ، و إنسكم و جنـكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ، ما نقص ذلك من ملكى شيئاً ، يا عبـادى لو أن أولكم و آخركم ، و إنسكم و جنكم قاموا فى صعيـد واحد ، فسألونى ، فأعطيت كل إنسان مسألتـه ، ما نقص ذلك ممـا عندى ، إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر ، يا عبادى إنما هى أعمالكم أحصيها عليكم ، ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، و من وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه .

ففضل هذا الاستثناء ، و غض الطرف عن هــذا الجانى النـاقض للقانون، على تنغص الحياة ، وكدر العيش ، وقلق النفس .

و من المعلوم أنه لا مجال لهذا النوع ، كذلك فى جنـابه ، و من ظن بأحد أنه شفيع عند الله من هذا النوع ، فقــد أشبه الأول فى الشرك و الجهالة ، فان الله سبحانه و تعالى مهما خص عبداً من عباده بنعمه و حبه ، و اجتبائه ، و لقب أحداً بالحبيب ، و آخر بالخليل ، و ثالثاً بالكليم ، و رابعـاً بروح الله و الوجيه ، و وصف بعض الملائكة بأنه « رسول كريم (١) » و « مكين (٢) » و « روح القدس (٣) » أو « الروح الأمين (٤) » ولـكن السيد ، هو السيد ، و العبد ، هو العبد ، و لا يستطيع عبــد أن يتخطى العبودية ، و يتعـالى على ما قدر له ، و وسم به من ذل الرق ،

---

(١) (٢) (٣) (٤) قال الله تعـالى فى سورة التكوير : « إنه لقول رسول كريم ، ذى قوة عند ذى العرش مكين ، مطاع ثم أمين » و قـد ذهب المفسرون إلى أن المراد به جبريل عليه السلام ، و قال فى سورة الشعراء : « نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنـذرين » و قال فى سورة البقرة : « وأيدناه بروح القدس » وقال فى سورة المائدة : « و إذ أيدتك بروح القدس » والمراد بكل ذلك جبريل .

و سيما العبودية ، فكما أنه يخضع لسيده طائعاً مسروراً ، و هو يعطف عليه ، ويغمره برحمته ، كذلك ينخلع قلبه ، وتنفطر مرارة كبده من هيبته و جلاله (١) .

---

(١) و قد عبر العارف الكبير ، و المربي الجليل الشيخ شرف الدين يحيي المنيري عن العظمة الالهية ، والتصرف المطلق في خلقه ، فيفعل و لا يبالي ، و يتصرف ولايسأل ، والألسنة مقطوعة ، و الأفواه مكمومة ، فجاء في إحدى رسائله التي وجهها إلى تلاميذه ، ما يتصدع منه الفؤاد ، وتقشعر له الجلود ، يقول رحمه الله :

« إنه يفعل ما يشاء لا يبالي بهلاك أحد أو نجاته ، أنظر كيف يموت واحد منهم عطشاً في الصحراء ، و يقول : الأنهار تجري من تحتي ، و أنا أموت ظمأ ، و لا أصيب منها قطرة ، فيناديه هاتف الغيب ، ويقول : إنا نأتي بآلاف من الصديقين إلى غابة موحشة مظلمة ، وصحراء قاحلة مجدبة ، ثم نقتلهم جميعاً ، بسيف قدرتنا و مشيئتنا ، حتى ينال بعض الغربان و النسور راتبها و وجبتها من عيونهم و خدودهم ، فاذا أراد أحد أن يتكلم ، ختمنا على لسانه ، وقلنا « لا يسئل عما يفعل » إن هذه الطيور لنا ، و الصديقين لنا ، فمن هذا الفضولي الذي يدخل فيما لا يعنيه و ينتقد فعلنا »

الشفاعة الثابتة فى الإسلام :

و النوع الثالث أن السارق تحققت عليه الجريمة ، و لكنه ليس مجرماً عادياً ، و لم يتخذ السرقة ديدنا وحرفة ، ولكنه ارتكب هذه الجريمة بنزوة من نزوات النفس ، فهو نادم على فعلته ، وهو وجل خجل يجل قانون ملكه ، و يعتبر نفسه مخطئاً يستحق العقوبة ، إنه لايلوذ بكنف أمير ، و وزير هرباً من ملك ، ولايدل بنصرة أحد ، و لا يعتمد عليها ، إن عينه شاخصة إلى الملك ، و إن آماله منوطة به لا غير ، يتطلع إلى ما يصدر من الملك فى أمره ، و إلى ما يأمر به ، فلما رآه الملك بهذه الحال من القلق ، و انقطاع الآمال ، و التقلب بين الخوف و الرجاء رق له قلبه ، ورثى لحاله ، و لكنه يعرف أنه إذا صفح عن جريمته من غير سبب ، تطرق الوهن إلى قانونه ، ونظام مملكته ، واستخف الناس بهذا القانون ، و زالت عنهم مهابته ، فأوعز إلى أمير أو وزير ، فقام بشفاعته عنده ، و أبدى الملك أنه يريد أن يكرم هذا الأمير بقبول شفاعته ، فعفا عن هذا السارق متمسكاً بشفاعة هذا الأمير، و الظاهر أن هذا الأمير لم يشفع لهذا السارق ، لأنه يتصل به بنسب أو صداقة ، أو أنه تكفل بنصرته ، و لكنه شفع له ، لأنه اطلع على رغبة الملك ، و هو أمير من أمراء هذا الملك ، ليس خدنا

للصوص ، حتى يتولى نصرتهم و يستقل بشفاعتهم ، فانه إذا فعل ذلك دخل فى زمرتهم ، و شكك فى نزاهته و شرفه ، و أساء إلى نفسه ، و هذا النوع من الشفاعة يسمى « الشفاعة بالاذن » .

فليعلم أنها هى الشفاعة المأذونة الممكنة ، وكل شفاعة يتحدث عنها القرآن و الحديث ، فهى هذه الشفاعة المأذون لها ، فيجب على الانسان ان يظل داعياً لله تعالى ، مشفقاً منه ، مستغيثاً به ، مقراً بذنوبه بين يديه ، مؤمناً بأنه ربه و ناصره ، لا يعرف له - إذا سرح طرفه ، و أرسل خياله - ملجأ ولا ملاذاً إلا الله ، فلا يعتمد على نصرة سواه ، فانه غفور رحيم ، سيفرج الكرب ، و يكشف الغمم بفضله ، ويغفر الذنوب جميعاً برحمته ، و يأمر من يشاء بشفاعته ، فكما أنه يجب أن يكل إليه جميع حاجاته ومآربه ، يتحتم عليه أن يكل إليه أمر نصرته وشفاعته ، يختار لها من يشاء ، ويأمر بها من يشاء ، عوضاً عن أن يبحث له عن شفيع ومدافع ، و ذاب و مانع ، فيعتمد عليه اعتماداً ينسيه الاعتماد على الله ، و يشغله عنه ، و يستهين بأحكام الشريعة ، و يتخذ ما يدعو إليه هذا الشفيع أو الوكيل من طريق ، وما يسلكه من سبيل ، شرعة و منهاجاً ، ويفضلها على دين الله ، وشريعة رسوله ، وسنة نبيه ، فانها سيئة و عار ، تبرأ منه جميع الأنبياء و الأولياء ، و مقتوها ،

و هم لا يشفعون لمن تلبس بهذا ، بل يسخطون عليه و يعادونه ؛ لأن سر كرامتهم ، ومناط شرفهم ، أنهم كانوا يؤثرون مرضاة الله على مرضاة أزواجهم ، و أولادهم ، و تلاميذهم ، و أتباعهم من عبيد و خدم ، و أحبة و أصحاب ، فاذا عارض منهم أحد أمراً من أوامر الله تعالى ، أوحارب الله و رسوله ، عادوه وحاربوه ، و ما ظنك بهؤلاء العامة الذين لا يتصلون بنسب أو صداقة ، أو حب ، حتى يقوم هؤلاء بنصرهم ، و يحاجوا الله فيهم ، و يكونوا للخائنين خصيماً ، بل الأمر بالضد ، فالحب لله ، والبغض لله ، قد أصبح لهم شعاراً و دثاراً ، فاذا قضى الله بادخال هؤلاء المجرمين في النار وافقوا الله فى أمره ، وسعوا فى سرعة وصولهم إلى قعر جهنم ، و تنافسوا فى الاعانة على ذلك .

لا داعى إلى الاعتصام بغير الله ، وطلب حمايته ، خلافاً للملوك والأمراء :

أخرج الترمذى عن ابن عباس رضى الله عنه ، قال كنت خلف رسول الله ﷺ يوماً ، فقال يا غلام احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، و إذا سألت فاسئل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، و اعلم أن الامة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشئ لم ينفعوك إلا بشئ قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك

بشئ لم يضروك إلا بشئ قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام ، و جفت الصحف .

و معنى الحديث أن الله سبحانه و تعـالى و إن كان ملك الملوك ، ليس شأنه شأن الملوك ، الذين يأخذهم السفه ، و يميل بهم التيه ، فلا يرقون لمملوك ، و لا يعطفون عليه ، و إن بالغ فى التضرع والاستغاثة ، لذلك لجأ كثير من رعية الملوك ، وأهل مملكتهم إلى الأمراء ، فتوسلوا بهم عند هؤلاء الملوك ، و تمسكوا بأهدابهم ، ولاذوا بحماهم ليميلوا إليهم ، ويشملوهم بعطفهم ، ويعفوا عن خطاياهم ، تحقيقاً لرغبة هؤلاء الشفعاء ، أو وجاهـة أولئك الأمراء و العظماء ، بل هو فى منتهى الكرم و الرحمة ، لا ينسى أحداً ، ولا يغفل عن أحد ، شفع شفيع ، أو لم يشفع ، وليس له مجلس كمجالس الملوك ، أو ملأ كملأ السلاطين ، ليس لأحد من السوقة والرعية قدم فى مجالسهم ، أو مجال لنفوذه ، فيباشر الحكم على هؤلاء المحكومين أمير أو وزير فى غالب الأحيان ، و يضطر الدهماء إلى الخضوع لهم ، وحضور مجالسهم ، و التودد إليهم .

بل إن الله أقرب إلى عبده من حبل الوريد ، فمن أقبل عليه بقلبه ، أقبل عليه بعطفه ، ووجده تجاه نفسه ، ليس بينه وبين ربه حجاب إلا الغفلة والجهالة ، فمن بعد عنه بعد بغفلته ، و من حرم رحمته

حرم بجهالته ومعصيته ، و هو أقرب من كل قريب ، ألا يعرف من دعا شيخاً ، أو نبياً ، و ناداهما لنصرته ، و ليقرباه إلى الله زلفى ، أن الشيخ و النبي بعيدان عنه ، و الله قريب منه ، و مثله مثل رجل جالس وحده عند الملك ، و قد أقبل عليه الملك يسمع طلبه ، وما يبديه من حاجة أورغبة ، فانصرف هذا الرجل الجاهل عن الملك ، و بدأ ينادى أميراً و وزيراً ، و هما بعيدان ، و سألهما أن يبلغا حاجة هذا الرجل إلى هذا الملك العظيم ، و هو لا يخلو عن حالين : إما هو أعمى ، و إما مجنون .

و قد أمر النبي ﷺ فى هـــذا الحديث بأنه إذا سنحت له حاجة اضطر إلى السؤال فليسأل الله ، وأنه إذا كان فى حاجة إلى إعانة ، أو إغاثة فليستعن بالله ، و أنه قد رفعت الأقلام ، وجفت الصحف ، فلا ماحى لما أثبته الله ، ولا مثبت لما محاه الله ، وأن القضاء واقع ، و الأمر محتوم ، وإن اجتمع الناس كلهم صغيرهم و كبيرهم على أن ينفعوا أحداً ، أو يضروه ، لم يجـــاوز ذلك قدر الله .

الصالحون من عباد الله لا يملكون إلا الدعاء و السؤال من الله :

و قد ثبت من هذا الحديث أن ما يعتقده كثير من الجهلة

و الغوغاء ، أن الله سبحانه و تعالى قد أذن للأولياء أن يغيروا قضاء الله و قدره ، فرب رجل لم يرزقه الله ولداً ، يرزقه هؤلاء الأولياء أولاداً ، و رب رجل انتهى أجله ، و حضرته الوفاة ، زادوا فى عمره ؟ و هـــذا كله باطل ، إن الحقيقة أن الله قـــد يقبل دعاء عباده ، و قـــد لا يقبل ، و يمتاز الأنبياء و الأولياء عن عامة الناس بأن أكثر دعواتهم مقبولة ، و هم مستجابون فى الدعاء ، و لكن التوفيق بيد الله فيلهمهم الدعاء و يتقبل منهم ، و الدعاء و الاستجابة كلاهما مقدران ، قد جرى بهما قلم القضاء ، و لا يقع فى العالم شئ إلا ومضى به علم الله ، وجرى به القلم ، فلا يخرج شئ من دائرة القضاء و القدر ، و لا يقدر أحد على عمل إلا ما قدر فى علم الله ، و لا يملك نبي أو ولى ، إلا أن يسأل الله و يدعوه ، لا حيلة له و لا سبيل إلا هـــذا السؤال و الدعاء ، و إذا شاء أجاب سؤله ، و قضى حاجته ، وإذا شاء منعه لحكمة يعلمها .

المؤمن الموحد رابط الجأش ناعم البـال ،
وضعيف العقيدة مشتت الفكر موزع النفس :

أخرج ابن ماجة عن عمرو بن العاص قال قال رسول الله ﷺ إن لقلب ابن آدم لكل واد شعبة ، فمن أتبع قلبه الشعب كلها

لم يبال الله بأى واد أهلكه ، و من توكل على الله كفاه الشعب .

و من المشاهد أن الانسان إذا تعلق قلبه بشئ و استحوذ عليه ، أو ألمت به ملمة فلم تنفرج ، تشتت فكره ، و ذهب فى طلب الغوث كل مذهب ، و هام فى كل واد ، و قد تسول له نفسه أن يستصرخ النبي الفلانى ، وقد تزين له أن ينادى فلاناً من الأئمة ، و قد يجول بخاطره أن ينذر لفلان من المشايخ ، و كذا من الشهداء ، أو يخضع لجنية فلانية ، أو يرجع إلى المنجم الفلانى ، أو الرمال الفلانى ، و قد تحدثه نفسه بأن يراجع سادناً ، أو إماماً من أئمة المساجد الذين اتخذوا هذه الأمور حرفة ، فيطلبون أن يبحث عن الفال فى كتاب ، و من هام فى كل واد ، واتبع كل ناعق ، صرف الله عنه عنايته و أخرجه من عباده الصادقين ، و أخطأ طريق التربية و الهداية الربانية ، و ظل يهيم فى هذه الأودية ، ويتيه فى مهامه الأوهام والأحلام إلى أن يتلف ويهلك ، فمنهم من تمذهب بمذهب الدهريين ، و منهم من سلك مسلك الملحدين ، و منهم من دخل فى غمار المشركين ، و منهم من ابتلى بالسفسطة .

و أما من توكل على الله ، و لم تنشعب به المذاهب عده الله فى عباده المقبولين ، و فتح الله عليه طريق الهداية ، وهدى قلبه ،

فأذاقه حلاوة الايمان ، و غشيته غاشية من السكينة ، و رزق من اجتماع الخاطر و رباطة الجأش ، و برد اليقين ، و هدوء النفس مالا سبيل إليه لمن تشتت فكره ، وتفرق هواه ، ثم إنه لا يخطئه ما قـــدر له و قسم ، و لـكن ضعيف العقيدة متشتت البال يعانى الحزن و القلق من غير جدوى ، و المؤمن المتوكل ، الموحد ينعم بالهدوء ، و الطمأنينة و السكينة .

إن الله يرجع إليه فى صغير و كبير ، وإنه ليس كملوك الدنـــيا فى تدبير المملكة ، و الاستعــانة بالحاشيـــة :

أخرج الترمذى عن أنس رضى الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ : ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتى يسأل الملح ، وحتى يسأله شسع نعله إذا انقطع .

و معنى ذلك أن الله عز و جل و علا لا يقاس على ملوك الدنيا ، فانهم يباشرون الأمور الخطيرة و يتولونهـا بأنفسهم ، أما الأمور التافهة فيكلونها إلى الخدم الموظفين ، فيلجأ الناس إليهم فى هذه الأمور التى ليست ذات خطر و شأن ، وليس الأمر كذلك فيما يختص بالله تعـــالى ، فانه هو القادر المطلق الذى يقدر على أن يصلح ما دق وجل من الأمور ، وإن كانت فى عددها وانتشارها كنجوم السماء ، ورمال الدهناء ، وليس لأحد تصرف فى مملـكته ،

فيحب أن يطلب منه التافه كما يجب أن يطلب منه الأمر الجليل ، و العطاء الجزيل ، لأن أحداً لا يملك شيئاً سواءاً الصغير منه و الكبير ، و الدقيق و الجليل .

تحذير النبي ﷺ لأهل قرابته من الاعتماد على نسب و قرابة ، و الاستغناء بهما عن العمل :

و أخرج الشيخان عن أبي هريرة قال لما نزلت « و أنذر عشيرتك الأقربين (١) » دعا النبي ﷺ قرابته ، فعم و خص ، فقال يا بني كعب بن لؤي أنقذوا أنفسكم من النار ، فانى لا أملك لكم من الله شيئاً ، أو قال فانى لا أغنى عنكم من الله شيئاً و يا بنى مرة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار ، فانى لا أغنى عنكم من الله شيئاً، ويابنى عبدشمس أنقذوا أنفسكم من النار فانى لاأغنى عنكم من الله شيئاً ، و يا بنى عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار فانى لا أغنى عنكم من الله شيئاً ، و يا بنى هاشم أنقذوا أنفسكم من النار فانى لا أغنى عنكم من الله شيئاً ، و يا بنى عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار ، فانى لا أغنى عنكم من الله شيئاً ، و يا فاطمة أنقذى نفسك من النار ، سليني ما شئت من مالى فانى لا أغنى عنك من الله شيئاً .

(١) سورة الشعراء الآية ٢١٤ .

و من المشاهد المجرب أن الذين يتصلون بأحد الصالحين أو المشايخ بنسب يعتمدون على نصرته ، و قد يأمنون مكر الله ثقة بهذا النسب ، و تيهاً و دلالا بهذه الزلفى ، لذلك أمر الله نبيه ﷺ أن يحذر من يتصل به بنسب أو قرابة عن هذا الغرور ، و الاسترسال إلى الأمانى و الأحلام ، وقد فعل ذلك رسول الله ﷺ فعم وخص ، و لم يترك فى هذا التحذير بنته التى هى بضعة منه ، و أحب الخلق إليه ، و قد أوضح ﷺ أن الانسان يوفى حق قريبه ، ويصله فيما يملكه فحكمهم فى ماله ، وخيرهم أن يسألوه ما شاؤا ، أما أمور الآخرة أو الحساب و الكتاب فانه لايملك منها شيئاً ، و لا يستطيع أن يدافع عن أحد ، أو يحتج لأحد ، فيجب على كل واحد أن يعنى باصلاح شئونه ، ويسعى فى الخلاص من النار ، و قد دل هذا الحديث على أن القرابة أو النسب لا يغنيان عن الانسان شيئاً ، و لا ينفعان عند الله .

❁ ❁ ❁

الفصل الرابع

فى رد الاشراك فى العبادة (١)

الدعوة إلى التوحيد الخالص
ونبذ الشرك قديمة و متصلة :

قال الله تعالى : « و لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إنى لكم نذير مبين أن لا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم (٢) » .

فقد دلت هذه الآية على أن الصراع بين المسلمين و الكفار بدأ من عهد نوح عليه السلام فما زال الصادقون من عباد الله ينهون عن أن يعظم أحد من الخلق تعظيما يليق بالله تعالى ، و عن أن تصرف إليه أعمال تقصد منها غاية التعظيم ، والذل والتواضع ، و هى مختصة بالله تعالى ، و ظلت الحرب قائمة بين الفريقين على قدم و ساق ، لم تضع أوزارها .

---

(١) العبادة تعنى الأمور التى خصها الله لتعظيمه ، و بينها للبشر ، حتى لايشركوا فيها غير الله (المؤلف) .
(٢) سورة هود ٢٥ — ٢٦ .

السجود بجميع أنواعه لا يجوز إلا لله تعالى:

وقال الله تعالى : « لاتسجدوا للشمس ولا للقمر ، واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون [1] » .

فقد دلت هذه الآية على أن السجدة من أعظم شعائر العبادة، و هى مختصة بالخالق جل وعلا ، فلا تجوز لمخلوق، و قد تساوى فى هذه الصفة القمر و الشمس ، و النبي و الولى ، و من قال إنه قد جاز السجود فى الأديان القديمة لبعض المخلوقات ، و نقل ذلك بالخبر الصحيح ، فصح سجود الملائكة لآدم ، و سجود يعقوب ليوسف ، فلا بأس أن نسجد لشيخ أو ولى ، و هذا باطل [2] ،

(١) سورة فصلت الآية ٣٧ .

(٢) و قد اتفق علماء الاسلام قديماً و حديثاً ، و كل من يحتج بقوله و عمله من الفقهاء و العارفين بالله ، والمشايخ الداعين إلى الله ، على أن السجود — سواءاً سجود العبادة و سجود التحية و التعظيم — لا يجوز إلا لله تعالى ، هذا عدا الأحاديث الصحيحة التى بلغت حد الاستفاضة ، و قد صرح فقهاء المذهب الحنفى ، و أئمته بحرمة سجود التحية ، و أفتى بعضهم بكفر من يفعل ذلك ، و قد قال شمس الأئمة السرخسى فى المبسوط : « من سجد لغير الله تعالى على وجه التعظيم كفر » وقال العلامة ابن عابدين—

فقد جازت أشياء فى الأديان السابقة ، و حرمت فى ديننا ، و قد أبيح النكاح بالأخوات الشقيقات فى عهد آدم ، فهل يبيح هؤلاء

— فى رد المحتار ج٥ ص ١٧٨ : « يكفر بالسجدة مطلقاً » ، وقال العلامة ابن حجر فى « الاعلام بقواطع الاسلام » : « ما يفعله كثيرون من الجهلة الظالمين من السجود بين يدى المشايخ ، فان ذلك حرام قطعاً بكل حال ، سواءاً كان للقبلة أو لغيرها ، و سواءاً قصد السجود لله تعالى ، أو غفل » و قد جمع الشيخ أحمد رضا خان البريلوى م سنة ١٣٤٠ هـ ، مأة و خمسين نصاً فقهياً فى حرمة سجود التحية فى رسالة « الزبدة الزكية » فلتراجع .

وقال الامام الشيخ أحمد بن عبدالأحد السرهندى م١٠٣٤هـ فى رسالة له ، كتبها إلى أحد أصحابه ، و قـد بلغه أن بعض أصحابه يسجدون له سجدة التحية ، فلا يشدد فى منعهم عن ذلك ، قال رحمه الله : « يا أخى إن السجود الذى هو عبـارة عن وضع الجبهة على الأرض يدل على غاية الذل والافتقار ، وكمال العجز والتواضع ، لذلك خصص هذا النوع من التذلل و التواضع بعبادة الله تعالى ، و لم يؤذن به لغير الله (رسالة عدد ٢٩٢ إلى السيد محمـد نعمان من ضمن رسائل الامام الشيخ أحمد السرهندى) .

المحتجون بهذه الدلائل أن يتزوج الاخوة أخواتهم ؟

و الأصل أن العبد مكلف بامتثال أمر ربه ، فعليه أن يمتثل أمره عن رضاً و طواعية نفس ، لا يجد فى نفسه حرجاً مما أمر به ، و لا يحاج و لا يتشبث بأمور الأولين و أخبارهم ، و بأن هذا الأمر بدع لم يسبق له نظير ، أو معارض للشرائع القديمة ، لأن هذا يؤدى إلى الكفر ، ومثل ذلك أن ملكا أصدر مرسوماً فى مملكته ، و بقى هذا المرسوم مدة ، ثم نسخ ، وأبدل بمرسوم آخر ، فمن قال إنى سأظل متمسكا بالمرسوم الأول ، و لا أقبل المرسوم الجديد ، اعتبر خارجاً على الملك محارباً له .

ضلال الناس فى من يعتقدون فيهم الصلاح والفضل :

و قال الله تعالى : « و أن المساجـد لله فلا تدعوا مع الله أحداً * و أنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً * قل إنما أدعو ربى و لا أشرك به أحداً * (١) » .

و العادة أن الانسان إذا أخلص فى الدعاء و النداء ، وصح ما بينه و بين الله ، اعتقد الناس أنه قد بلغ فى الولاية والروحانية منزلة يقدر فيهـا على أن يعطى من شاء ما شاء ، وينزع ممن شاء ما شاء ، فيتهافتون عليـه تهافت الفراش عـلى النور ، و يكادون

(١) سورة الجن ١٨ - ١٩ - ٢٠ .

يكونون عليه لبداً ، فينبغى لهذا العبد الصالح أن يبين الحقيقة ، ويميز الحق من الباطل ، فينهى عن دعاء غير الله ، و ينفى عن الخلق القدرة على النفع و الضرر ، و يوضح أن من دعا غير الله ، ورجا منه النفع و الضرر فقد أشرك ، و يعلن أنه برئ من هذا الشرك ، غير راض عن هذا العمل .

وقد دلت هذه الآية على أن المثول بغاية الأدب والتواضع — كما كان الشأن فى مجالس ملوك فارس ، وكما هو الشأن فى معابد الوثنيين عند الأصنام و الهياكل ، و السدنة و الكهان — أمام شيخ صالح ، أو عظيم المنزلة فى الروحانية و الربانية ، كأنه فى الصلاة ، و نداؤه من قريب و بعيد ، و اللهج باسمه باستمرار ، كأنه اسم من أسماء الله الحسنى ، من الأعمال التى خصها الله لتعظيمه ، و من أشرك فيها غيره ، فقد أشرك بالله .

المناسك و مظاهر التعظيم الأقصى وشعائر الحب و التفانى ، خاصة بالبيت و الحرم :

و قال الله تعالى : « و أذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها ، و أطعموا البائس الفقير ، ثم ليقضوا تفثهم ، و ليوفوا

نذورهم ، و ليطوفوا بالبيت العتيق (١) » .

ومعنى ذلك أن الله سبحانه وتعالى قد خصص أمكنة لتعظيمه، كالكعبة ، و عرفات ، و المزدلفة ، و منى ، و الصفا و المروة ، و مقام إبراهيم ، و المسجد الحرام كله ، و مكة كلها ، و الحرم كله ، وألهم الناس شوقاً لزيارتها ، و الحنان إليها ، فيتوجهون إلى هذه الأمكنة رجالا و ركباناً ، ويأتون إليها من كل واد عميق ، و مرمى سحيق ، و يتجشمون فى سبيلها مشاق السفر ، و عناء التنقل ، يصلون إليها غبراً شعثاً ، متبذلين فى الثياب ، زاهدين فى الشارات و المظاهر ، فيذبحون هنالك الأنعام لله تعالى ، و يوفون نذورهم ، ويطوفون بالبيت ، ويقضون لبانتهم من تعظيم الله تعالى، الذى غمر نفوسهم و قلوبهم ، و يرضون هنالك عاطفة الحب و الحنان ، التى ملكتهم .

و يذهبون فى ذلك مذاهب شتى ، و يتفننون فيه ، فمنهم من يستلم عتبة البيت و يقبلها ، و منهم من يقف داعياً أمام الباب ، و منهم يتضرع متشبثاً بكسوة الكعبة ، ومنهم من يعتكف عنده ، فيصل بياض النهار بسواد الليل عاكفاً على عبادة الله ، منصرفاً إلى ذكره ، فمنهم من شخص ببصره إلى البيت ، فهو يتمتع بجماله ، إلى

(١) سورة الحج ٢٧ - ٢٨ - ٢٩ .

غير ذلك من مظاهر التعظيم ، و شعائر الحب و التفانى ، و الله يرتضيها و يثيبهم عليها فى الدين و الدنيا ، فلا تجوز هذه الأعمال « المختصة بهذه الأمكنة » لتعظيم شئ آخر ، شخصاً كان أو قبراً ، و مكان عبادة لرجل صالح ، أو نصباً لصنم .

الحج و أعماله لا تجوز إلا للبيت :

ومن الشرك أن يقصد الانسان هذه الأمكنة من أنحاء بعيدة، و يشد إليها الرحال ، و يتجشم فى سبيلها المشاق ، و المصاعب ، يصل إليها متبذلا متوسخاً أغبر أشعث ، و يذبح هنالك الأنعام ، و يوفى النذور ، أو يطوف حول قبر أو بيت ، و يتأدب مع الغابة التى تحيط بهذا المكان ، ولا يصطاد هناك صيداً ، ولا يعضد شجرة ، و لا يقتطع عشباً ، و يرجو من ذلك الثواب و النفع فى الدنيا و الآخرة (١) ، لأن هذه الأعمال كلها مختصة بالخالق جل و علا .

---

(١) كما يفعله كثير من الغلاة و الجهلة حين يشدون الرحال إلى المشاهد و ضرائح الأولياء فى الهند وإيران ، و لهم فى ذلك آداب و التزامات و أحكام تضاهى آداب الحج و التزاماته و أحكامه و قد تفوقها فى الدقة و الاحتياط و الخشوع .

تخصيص الحيوانات للصالحين ، والتقرب باحترامها ونذرها وذبحها إليهم ، حرام:

قال الله تعالى : « أو فسقاً أهل لغير الله به (١) » .

و المراد به دابة أو حيوان خصص لغـــير الله ، فلا يمس بسوء ، ويعيش مدللا محترماً ، وإذا ذبح ذبح إرضاءاً لمن خصص به ، و تقرباً إليه (٢) ، فانه حرام و نجس ، كالخنزير ، والدم ،

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٤٥ .

(٢) قد شدد فقهاء المذاهب التى عليها الاعتماد، وعلماء الأسلام الذين يحتج بقولهم ، على حرمة هذا الفعل ، و ألحق كثير منهم هذه الحيوانات بالميتة ، و غير المذكى ، راجع تفسير آية : « وما أهل به لغير الله » فى كتب التفسير، وأحكام القرآن ، وراجع كتب الفقه فى المذاهب الأربعة وغيرها، وقد أفاض فى تحقيقه الشيخ عبدالعزيز بن ولى الله الدهلوى فى تفسير فتح العزيز و أجاد ، فليراجع .

و قـــد بالغ الفقهـاء فى المنع عن الذبح لغير الله تعظيما وإجلالا ، حتى حرموا ما يذبح لقدوم أمير أو عظيم تقرباً إليه وتعظيما له ، جاء فى الدر المختار ج ٥ ص ١٩٦ على هامش رد المحتار : (ذبح لقدوم الأمير ونحوه) كواحد من العظماء (يحرم) لأنه أهل به لغير الله ، (ولو) وصلية (ذكر اسم الله تعالى) ، انتهى .

و الميتة ، لا فرق بينها وبين هذا الحيوان ، و لم تقيده الآية بأن يذكر عليه اسم مخلوق عندالذبح (١)، بل إنها اقتصرت على أن كل حيوان نسب إلى مخلوق واشتهر به حرام ونجس ، كالبقرة المنسوبة إلى السيد أحمد الكبير (٢) ، أو التيس المنسوب للشيخ سدو(٣) ،

و على ذلك اتفق المشايخ المحققون ، والراسخون فى العلم، يقول الامام أحمد بن عبدالأحد السرهندى فى رسالة كتبها إلى امرأة صالحة من أتباعه : « اعتاد كثير من الجهال أن ينذروا حيوانات لمشايخهم ، و للصالحين ، والأولياء ، و يسوقونها إلى قبورهم فيذبحونها ، و قد عده الفقهاء فيما نقل عنهم شركا ، و شددوا فى ذلك ، وصرحوا بالتشنيع عليه ، و التحذير منه ، و قد عدوا ذبح هذه الحيوانات من ضمن الذبائح التى كان يذبحها المشركون للجن طمعاً فى رضاهم ، و خوفاً من سخطهم » (مكتوب رقم٤١/٣٥.

(١) راجع فى فتح العزيز للامام عبد العزيز بن ولى الله الدهلوى (ص ٤١٥ المطبعة المحمدية) تفسير قوله تعالى « وماأهل به لغيرالله » تجد بحثاً وافياً فى هذا الموضوع ، و نقولا عن أئمة المذاهب وكبار المفسرين .

(٢) يغلب على الظن أنه الامام السيد أحمد الرفاعى (م ٥٧٨هـ) مؤسس الطريقة الرفاعية ،

(٣) شخصية خيالية لاوجود لها ، وغالب من يعتقد فيها ويذبح لها لقضاء الحوائج ، و أداء النذور، النساء (راجع معجم نوراللغات ج٣ص٤٦٢ ، وفرهنگ آصفيه ج٣ ص ١٩٨).

فكل حيوان دجاجة كانت أو بعيراً نسب إلى مخلوق « تقرباً إليه » و اشتهر بهذه النسبة ، كان حراماً و نجساً ، سواءاً نسب إلى ولى أونبي ، أو أب أو جد ، أو عفريت أو جنية ، ومن فعل ذلك ، تحقق عليه الشرك .

شركاء متشاكسون، وأسماء من غير مسميات :

قال الله تعالى : « يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ۝ ما تعبدون من دونه إلا أسماءاً سميتوها أنتم و آباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ۝ إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ، ذلك الدين القيم و لكن أكثر الناس لا يعلمون ۝ (١) » .

من المقرر أن العبد الذى كان فيه شركاء متشاكسون فى نصب وعذاب، إن العبد هوالذى كان له سيد قاهر يتكفل بقضاء حاجاته ، و إصلاح شئونه ،

و بصرف النظر عن ذلك ، فانه لا وجود لهؤلاء السادة الأرباب الذين يشركهم الجهال فى ملك الله و ملكوته ، إنما هم من نسج الخيال ، فمن الجهال من يتخيل أن فلاناً بيده إنزال الأمطار ، و إرسال السحاب ، و فلاناً بيده الانبات و إخراج

(١) سورة يوسف الآيتان ٣٩ - ٤٠ .

الحب ، و منهم من يرزق الأولاد ، و منهم من يمنح الصحة و الشفاء ، ثم يخرقون لها أسماءاً ، فيسمون بعضها ببعض الأسماء التى يخترعونها ، ثم يعكفون عليها عبادة ودعاءاً، ونداءاً ، ثم يمضى على ذلك زمان فينتشر فى الناس، ويتمسكون بهذه العقائد والعادات ، و ما هى إلا تخيلات ، لا وجود لها فى الخارج ، فليس لهذه المسميات وجود فى العالم (١) ، و إذا وجد أحد بهذا الاسم ، فانه لا سلطان له فى هذا الكون ، و مجارى الأمور ، و الذى يملك أزمة الأمور ، هو الله وحده ، و ليس من أسمائه محمد أو

(١) اقترن الشرك و الوثنية بالزور و الاختلاق فى أكثر الأمم و الطوائف ، حتى كأنهما رضيعا لبان ، وخدنان لا يفترقان ، وقد شاعت فى كل بلاد ، تمسكت بالشرك ، و أنقطعت صلتها عن تعاليم الأنبياء و صحفهم ، مشاهد و ضرائح منسوبة إلى شخصيات خيالية ، أو أسطورية لا وجود لها البتة ، و قد كثر التزوير فى قضية الأمكنة التى تزار وتشد إليها الرحال ، والضرائح و المشاهد التى تقصد من أنحاء بعيدة ، ولم يصح منها إلا القليل النادر ، وكان من معجزات القرآن ، أنه قرن الشرك بالزور ، فقال : « فاجتنبوا الرجس من الأوثان و اجتنبوا قول الزور». (سورة الحج الآية ٣٠)

على ، أما الذين سموا بهذه الأسماء ، فهم لا يملكون من هذا العالم شيئاً ، أما الذى ينادى بمحمد أو بعلى ، ثم يملك هذا العالم ، فلا وجود له البتة ، إنما هى أسماء سماها الجهال ، و آباؤهم ما أنزل الله بها من سلطان ، ومن عارض أمر الله بأمره رفض و لم تكن له قيمة ، و قد نهى الله عن الاسترسال إلى أمثال هذه الأوهام و الأحلام ، و إن لب الدين و جوهره هو أن يمتثل العبد أوامر الله ، ويؤثرها على كل أمر ، و على كل ما شاع فى الناس من الأساطير و التقاليد ، و لكن أكثر الناس مع الأسف لا يسلكون هذا الطريق ، و يؤثرون تقاليد مشايخهم و أعرافهم على أمر الله تعالى .

و قد ظهر من هذه الآية أن التمسك بشرعة و منهاج ، و اللجوء إلى أمر يستند إليه ، هو من الأمور التى خصصها الله لتعظيمه ، فمن عامل مخلوقاً بذلك تحقق عليه الشرك ، و لا طريق للعباد للاهتداء إلى شريعة الله و أحكامه إلا إخبار الرسول ، فمن آثر كلام إمام أو مجتهد ، أو غوث أو قطب ، أو عالم أو شيخ ، أو أب أو جد ، أو ملك أو وزير ، أو قس أو سادن ، وطريقتهم على قول الرسول (١)، و احتج بقول شيخ أو أستاذ معارضاً لآية

(١) لأن المقصود هو اتباع الله ورسوله ، و العلماء المجتهدون —

أو حديث ، أو اعتقد عن النبي ﷺ أنه هو الشارع الأصلي ، و أنه كان يتكلم عن الهوى ، و ما توحى إليـه نفسه ، فيفرض ذلك على أمته ، فقد أشرك ، إن الحكم إلا لله ، و الرسول هو المخبر الصادق ، فما وافق إخباره من كلام الناس ، قبل ، و ما خالفه ، رد .

غاية التعظيم فى تذلل و خشوع من حق الله تعالى :

أخرج الترمذى عن معاوية قال قال رسول الله ﷺ ، من سره أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار .

و هذا وعيد شديد لمن أحب أن يقف الناس أمامه واضعى

— و أئمة المذاهب شراح لكلام الله و رسوله ، يشرحون الغـامض ، و يقربون البعيد ، و يميزون بين الصحيح و الضعيف ، و الناسخ و المنسوخ ، و المجمل و المفصل و يكفون من لم تتوفر عنده شروط الاجتهاد والترجيح ، و صلاحية النقد والتنقيح ، أو لمن بعد زمانه مؤنة البحث والتحقيق ، فمن أخذ بقولهم أخذ به كقول شارح ومعلم ، و صاحب اختصاص فى الفن ، و تكليف العامى بالاجتهاد و التحقيق تكليف بما لا يطاق ، أما من آثر قول مجتهد على النصوص الشرعية لمجرد هوى أو عصبية ، أو حمية جاهلية ، كان تابعاً لهواه غير متبع سبيل المؤمنين .

أيمانهم على شمائلهم فى غاية الأدب والتواضع ، كتماثيل لا تتحرك و لا تتكلم ، و لا تنظر يميناً و شمالا ، و قد أوعده الرسول ﷺ بجهنم ، فانه أحب أن يعظمه الناس بما يعظمون به الله إذا وقفوا للصلاة واضعي يمناهم على يسراهم فى أدب وخشوع ، فكأنه ادعى الألوهية و تشبه بالله ، و قد ظهر من هذا الحديث أن المثول أمام عظيم أو كبير فى أدب و تواضع لا يقصد به إلا التعظيم من الأمور التى خصصها الله تعالى لتعظيمه .

أتعبدون ما تنحتون ؟ :

أخرج الترمذي عن ثوبان قال ، قال رسول الله ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى تلحق قبائل من أمتى بالمشركين ، و حتى تعبد قبائل من أمتى الأوثان » .

و يفهم من هذا الحديث أن الشرك نوعان ، النوع الأول أن يجعل لأحد تمثال و يعبد ، و يقال له فى اللغة العربية «صنم» و النوع الثانى أن يخصص بيت أو شجرة ، أو حجر ، أوخشب ، أو قرطاس ، و ينسب إلى أحد ثم يعبد ، ويجل ويعظم ، ويقال له فى العربية « وثن (١) » و يدخل فيه القبر ، و مكان جلس فيه

(١) لعل المؤلف رحمه الله بنى كلامه هذا على ما نقل عن بعض أئمة اللغة ، أن الصنم ما كان على صورة خلقة البشر، ←

أحـــد الصالحين ، و اعتكف للاربعين ، أو عكف على العبـــادة والرياضة ، ويدخل فيه اللحد ، أو عود ينسب إلى أحد الصالحين و الأولياء ، أو ضريح مصنوع من القرطاس منسوب إلى سيدنا حسين بن على (١) ، و العلم (٢) ، وشدة (٣) ، و « مينهدى(٤) »

ــ والوثن ما كان على غيرها ، نقله الزبيدى فى تاج العروس عن شرح الدلائل (ج ٨ ص ٣٧١) ، و يؤيده ما قاله ابن منظور فى لسان العرب (ج ١٥ ص ٢٤١) نقلا عن عرفة ، قال : ما اتخذوه من آلهـــة فكان غير صورة فهو وثن ، فاذا كان له صورة فهو صنم ، وتفرقت أقوال أئمة اللغة فى تفسيرهما ، و الفرق بينهما ، فمنهم من قال بالعكس ، و منهم من لم يفرق بينهما و أطلقهما على المعنيين ، و يظهر من تتبع الآيات و الأحاديث ، وكلام العرب ترجيح القول الأول ، و هو الذى اعتمد عليـــه المؤلف ، و الله أعلم .

(١) و يسمى فى الهند بـ « تعزيه » و يحمل على الأكتاف فى موكب ، و تنشد عليه الأبيات المشجية فى تأبين الحسين و رثائه ، و ما تحمله من ظـــلم و قسوة ، ثم يدفن فى عاشوراء .

(٢) يرفع الشيعة فى الهند و العراق أعلاماً كثيرة فى محرم ، تشبهاً بالأعلام التى رفعها المقاتلون ، و أنصار سيدنا ــ

الذى ينسب إلى الامام قاسم ، و الشيخ عبد القادر الكيلانى

= الحسين ، و أفراد أسرته فى كربلاء فى المعركة التى وقعت بينهم و بين جيش عبيد الله بن زياد .

(٣) يقال فى أردو « شده » و « شداء » و هو علم يرفع و يطاف به فى محرم مع الضرائح المصنوعة من القرطاس و أصله قبضة من فضة تشد بخشب ، و يلفون عليها قماشاً أحمر و أخضر ، و الكلمة من « شد يشد » أى ربط ، راجع نور اللغات ج ٣ ص ٤٣٠، وفرهنك آصفيه ج٣ ص ١٧٠) .

(٤) بكسر الميم وإشمام النون وتسكين الهاء المهملة ، وكسر الدال، يصنع الشيعة الامامية شيئاً مربعاً من القرطاس الملون ، ويشعلون فى جوانبه الأربعة شموعاً ذات لون أحمر وأخضر ويسمونه « ميهدى » و « مينهدى » معناه بالأردية الحناء ، ويضعونه فى البيت الذى يضعون فيه الضرائح القرطاسية (نور اللغات ج ٤ ص ٦٨٤) و « الامام قاسم » هو قاسم بن الحسن بن على بن أبى طالب زوجه عمه الحسين بنته بكربلاء تحقيقاً لوصية أخيه الحسن ، و سببه عند الشيعة ومقلديهم أن قاسم بن الحسن قد قتل مع عمه شهيداً و هو فى الرابعة عشرة من عمره ، و الحناء علامة للفرح والزينة يتهادى بها فى الأعراس وتصبغ بها العروس راحتيها .

ومصطبة (١) (توضع عليها الضرائح القرطاسية المنسوبة إلى سيدنا الحسين) ، و مكان تعود الأساتذة و المشايخ الجلوس فيه للافادة والارشاد ، فيعظمون كل ذلك ، ويقدمون إليه النذور، والقرابين، و يصنعون لبعض الشهداء طاقاً و علماً ، ومدفعاً ، و يقربون إليه الأنعام ، و يحلفون به ، و يدعون بعض البيوت بأسماء بعض الأمراض ، فبيت يشتهر باسم « الجدرى » ، و ينسبون بعض البيوت إلى بعض الالاهات الهندية البرهمية (٢). فهذه كلها أوثان.

و قد أخبر النبي ﷺ ، أن المسلمين الذين يصبحون فريسة الشرك والوثنية عند دنو الساعة ، وفى آخر الزمان، يكون شركهم من نوع العكوف على أشياء تنسب إلى السابقين ، فيعتقدون فى هذه الأشياء النفع و الضرر ، و يغلون فى تقديسها و تعظيمها ، خلافاً للمشركين من مشركى الهند و مشركى العرب ، فانهم عباد

---

(١) أى « دكة » ، و هو بناء يرتفع عن الأرض ، و يسطح أعلاه للجلوس .

(٢) وهنا ذكر المؤلف أسماءاً لهذه الالاهات الأسطورية الخرافية التى يعتقد البراهمة فى الهند و الوثنيون أن لها اتصالا خاصاً ببعض الأمراض ، والأوباء ، فيطلب منها الشفاء، و التوقى من هذه الأمراض ، و يحرص على إرضائها ، و التزلف إليها .

أصنام يعبدون التماثيل و يتمسكون بها ، وكلتا الطائفتين مشركة ، قد أعرضت عن الله و عارضت الرسول ﷺ و تعاليمه .

الذبح تقرباً و تعظيما من حق الله تعالى :

أخرج مسلم عن أبي الطفيل أن علياً رضى الله عنه أخرج صحيفة فيها : « لعن الله من ذبح لغير الله » .

و قد دل هذا الحديث على أن الذبح لغير الله من الأعمال التى خصصها الله لتعظيمه ، و من ذبح لغير الله (١) فقد أشرك .

عودة الجاهلية و عاداتها وعقائدها فى آخر الزمان :

أخرج مسلم عن عائشة قالت سمعت رسول الله ﷺ يقول : لايذهب الليل والنهار ، حتى يعبد اللات والعزى ، فقلت يارسول الله إن كنت لأظن حين أنزل الله : « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون (٢) »

(١) لا يدخل فى ذلك كما يعرفه كل عاقل ، ما يذبح للضيافة ، و إكرام الضيف ، و الولائم ، إنما يدخل فى ذلك ما يذبح للتقرب عن طريق الاعتقاد الدينى ، و جلب النفع ودفع الضرر تعبداً و تقرباً ، وكتب الفقه مليئة بالنصوص ، و الأحكام فى المنع عن الذبح لغير الله و تحريم أكل لحمه كما مر سابقاً .

(٢) سورة التوبة الآية ٣٣ .

أن ذلك تام ، قال إنه سيكون من ذلك ما شاء الله ، ثم يبعث الله ريحاً طيبة ، فتوفى من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان ، فيبقى من لا خير فيه فيرجعون إلى دين آبائهم .

و قد دل هذا الحديث على أن للشرك القديم ، و الوثنيـة البائدة عودة و انتشاراً فى آخر الزمان ، و قد تحقق ما أخبر به الرسول ﷺ ، فقــد بدأ الشرك القـديم — الذى ظن كثير من الناس أنه قدانقرض — ينتشر بجوار مايفعله المسلموق مع النبي ﷺ ، و الأولياء ، و الأئمة ، والشهداء من الأعمال الشركية ، فمنهم من يؤمن بتماثيل الـكفار فيقلدونهم فى عاداتهم وتقاليدهم ، مثل السؤال من سدنة الهياكل ، وبيوت الأصنام ، واللجوء إليهم فى المعضلات والمبهمات ، والايمان بالسعد والنحس ، وتأثير الأنواء والنجوم ، والخضوع للالاهات(١) التى خصصت لبعض الأمراض ، والتقرب إليها بالنذور ، و الاحتفال بأيام و مواسم جاهليــة ، يحتفل بها الوثنيون فى الهند ، و المجوس فى إيران ، و اتخاذها أعياداً ، وأيام فرح و سرور ، و أكل و شرب ، و إنارة بيوت و تزيينهـا ،

---

(١) هنا ذكر المؤلف أسماء للالاهات الهندية (الميثولوجية) التى يعتقد مشركو الهند فيها التصرف فى العالم ، و الصلة القوية ببعض الأمراض الفاشية .

مثل « ديوالى (١) » فى الهند و « النوروز » و « المهرجان» من أيام الفرس و المجوس ، و الاعتقـــاد فى القمر و العقرب تحت الشعاع ، و إن هذه كلها من عادات الهنـــادك و المجوس ، التى انتشرت فى المسلمين ، وقد تبين من ذلك أن الشرك يتسرب إلى المسلمين ، إذا هجروا القرآن و الحديث ، و تمسكوا بعادات الآباء و الأجداد ، و تقاليدهم .

فتنة الشيطان فى آخر الزمان :

أخرج مسلم عن عبد الله بن عمر قال قال رسول الله ﷺ يخرج الدجال فيبعث الله عيسى بن مريم فيطلبه فيهلكه ، ثم يرسل الله ريحاً باردة من قبل الشام ، ولا يبقى على وجه الأرض أحد

---

(١) يوم ينير الهنادك فى الهند فيه بيوتهم، ويشعلون مصابيح وسرجاً ، ويلعبون بالألعاب النارية ، ويصنعون أنواعاً من الحلاوى ، و يتهادون بها ، ويتقربون بها إلى إلهة الثروة والسعادة ، التى يسمونها « اچهمى » ، و يلحق بذلك يوم الاحتفال بوفاء النيل ، وعيد شم النسيم فى مصر ، من أراد التفصيل فعليه بمراجعة كتاب « اقتضاء الصراط المستقيم مخالفـــة أصحاب الجحيم» لشيخ الاسلام ابن تيمية ، و«كتاب الابداع فى مضار الابتداع » للشيخ على محفوظ من علماء الأزهر.

فى قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته ، فيبقى شرار النـــاس فى خفة الطير ، و أحلام السباع لا يعرفون معروفاً ، و لا ينكرون منكراً ، فيتمثل لهم الشيطـان ، فيقول ألا تستحيون فيقولون ماذا تأمرنا ، فيـــأمرهم بعبادة الأوثان ، و هم فى ذلك دار رزقهم ، حسن عيشهم .

وقد دل هذا الحديث على أنه ينقرض الجيل المؤمن ، الراسخ فى العلم ، ويخلفه السفهاء الذين طاشت أحلامهم ، وخفت أجسامهم ، و قويت ضراوتهم ، و أسفوا إلى مستوى الحيوانات ، و فقدوا صلاحية التمييز بين الخير والشر ، فلا هم لهم إلا ابتزاز الأموال ، و التهام الحرام ، فيأتيهم الشيطان ، و يقول لهم إنه من العـــار أن يعيش الانسان بلا دين وطريق ، فيقبلون على الدين ، ويبحثون عنه ، و لكنهم لا يصدرون عن كلام الله ورسوله ، بل يحكمون عقولهم (الحيوانية الصبيانية) فيخترعون طرقاً فى الدين ، ويتردون فى مستنقع الشرك ، فيوســـع لهم فى الرزق ، و يطيب عيشهم ، فيزدادون بذلك إيغالا في الشرك ، و بعداً عن الهدى ، اغتراراً بأنهم كلما ازدادوا هياماً بهذه الأنصاب و الأوثان ، ازدادوا سعة فى الرزق ، و نجاحاً فى المآرب .

فيجب أن يحذر الانسان مكر الله ، لأن العبد قـــد يكون

مشركا ، طالباً من غير الله تحقيق أمانيه ، و قضاء مآربه ، فيقضى الله حاجاته ، و يعطيه سؤله امتحاناً و إمهالا ، و يحسب أنه يحسن صنعاً ، فلا يثق الانسان بالنجاح و لا بالخيبة فى الأمانى و الرغبات و لا يجعلهما ميزاناً لخير أو شر ، و حق و باطل ، و لا يترك دين الحق دين التوحيد ، لعدم تحقق بعض الرغبات و الخيبة فى بعض الآمال .

وقد دل الحديث على أن الانسان مهما غاص فى المعاصى ، و طرح الحشمة و الحياء ، و لم يقصر فى أكل أموال الناس بالباطل ، و لم يميز بين الخير و الشر ، كان أفضل من المشرك ، و ممن يعبد غير الله ، لأن الشيطان يرضى بأن يقلع الانسان عن هذه السيئآت ، و يكف عن الذنوب ، و يتمسك بالشرك .

و أخرج الشيخان عن أبى هريرة قال قال رسول ﷺ لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوس حول ذى الخلصة (١) .

---

(١) و تمام الحديث « و كان صنما تعبدها دوس فى الجاهلية بتبالة » قال النووى فى شرح هذا الحديث : أليات بفتح الهمزة و اللام ، معناه أعجازهن ، و المراد يضطربن من الطواف حول ذى الخلصة ، أى يكفرون و يرجعون —

و قد دل هـذا الحديث على حرمة الطواف حول كل بيت إلا حول البيت العتيق ، الذى هو بيت الله ، وضع مباركا وهدى للناس .

* * *

— إلى عبادة الأصنام وتعظيمها ، و « تبالة » موضع باليمن، و ذو الخلصة بفتح الخاء و اللام بيت صنم ببلاد دوس . انتهى مختصراً .

الفصل الخامس⊛

فى

رد الاشراك فى العادات

ولوع الفلسفات الوثنية ، والعقول الضعيفة بالاناث وتقليد المسلمين للمشركين فى ذلك :

قال الله تبارك و تعالى : « إن يدعون من دونه إلا إناثاً و إن يدعون إلا شيطاناً مريداً ، لعنه الله ، و قال لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً ، و لأضلنهم و لأمنينهم و لآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام و لآمرنهم فليغيرن خلق الله ، و من يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً يعدهم و يمنيهم ، و ما يعدهم الشيطان إلا غروراً ، أولئك مأواهم جهنم و لا يجدون عنها محيصاً (١) » .

⊛ سنذكر فى هذا الفصل الآيات و الأحاديث التى تدل على أنه لا يجوز للمسلم أن يعظم غير الله بما يعظم به الله ، فى عاداته وأمور دنياه . (المؤلف)

(١) سورة النساء الآيات ١١٧ إلى ١٢١ .

و مفهوم الآية أن المشركين قصارى جهدهم مراقبة الاناث، وصرف الهمة إليهن (١) بجميع القوى، وتمثلهن، واللهج بأسمائهن لجلب المنافع و دفع المضار، فمنهن من يختار اسم السيدة فاطمة، و منهم من يختار اسم آسية (٢)، و منهم من تمسك بأسماء إناث أخرى (٣)، وجنيات ذات ألوان مختلفة، والإلاهات من إلاهات

---

(١) و هذه الآية القرآنية من معجزات القرآن، فان معظم وثنية الأمم المشركة كالاغريق و الهنود، و أساطيرهم الخرافية تدور حول الالاهات، وطبقة الاناث. وشغفهم و هيامهم بهن، و خضوعهم لهن، قد بذ شغفهم بالآلهة الذكور، وباسمهن بنيت أكثر الهياكل، وتغنت الفلسفة، و علم الالهيات بهن، يصدق ذلك من قرأ تاريخ الفلسفة اليونانية، و الميثولوجية الهندية، و صدق الله العظيم: «إن يدعون من دونه إلا إناثاً».

(٢) المشهور أنها كانت امرأة فرعون التي وصفها القرآن بالايمان و الاستقامة، و لقيت الأذى فى سبيل عقيدتها (راجع تفسير ابن كثير سورة التحريم).

(٣) ذكر المؤلف هنا أسماء هندية كثيرة لم نر لزوماً لذكرها، وقد شغلت فى الميثولوجية الهندية مكاناً واسعاً، وسيطرت على عقول كثير من الناس فى الهند.

الوثنيين تعزى إليهـا قدرة و تصرف فى الكون ، وصلة خاصة ببعض الأمراض و الأوباء ، و تأثير فى الوقاية عنها ، و ما هى إلا تخيلات و توهمات ، وليس هناك أنثى و لا ذكر ، إنما هو تحليق فى عالم الخيال ، و تسويل من تسويلات الشيطان .

و هذا الذى قد يتسلط على الانسان ، و قد يأتى بعجـائب و مخاريق ، ليس إلا شيطاناً ، و إليه تصل نذورهم و قرابينهم ، و هؤلاء يقدمونهـا إلى هذه الاناث المتخيلة ، و يتلقفها الشيطان فلا ينتفعون بها ، لأن الشيطان رجيم ، قد طرده الله و خذله ، فلا يستفاد منه فى الدنيا فضلا عن الدين ، ومتى نفع العدو عدوه ؟

تغيير خلق الله بأمر الشيطان :

و قد أعلن الشيطان أمام الله أنه لا بد أن يتخذ من عباده نصيباً مفروضاً ، و يضلهم و يمنيهم ، و يأمرهم ، فيبتكون آذان الأنعام تقرباً إليه ، و إشعاراً له ، و يأمرهم فيقلدونها ، ويضعون لهـا علامات ، مثل صبغ وجوههن بالحنـاء ، و تقليدهن أقاليـد الظهور ، كما يفعل بالعريس فى الهند (١) ، ويوضع النقد فى أفواههن ، و يدخل فى ذلك كل إشعار لحيوان تقرباً إلى إله أو إلهة ، و قد

(١) و هـذه كلها عادات المشركين من المسلمين و غير المسلمين فى الهند ، مع الحيوانات و الأنعام .

وعدهم الشيطان بأنه يأمرهم فيغيرون خلق الله الذى خلقهم عليه ، فبعضهم يرسل ضفيرة باسم آلهتهم و معظميهم ، و منهم من يثقب أنفه و أذنه إظهاراً للخضوع و الاستكانة ، و الرق و العبودية ، و منهم من يحلق لحيته تجملا و تزيناً ، و منهم من يتظاهر بالفقر بحلق الحاجبين ، وشعر اللحية و الرأس . وهذه كلها من وساوس الشيطان ، و معارضة لله و لرسوله ، و من يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً ، فان الشيطان لايملك إلا النزغة ، و النفثة فى القلب ، و قد يعد و يمنى ، و يسترسل الانسان إلى هذه الأمانى و الأحلام ، و يغرق فى التخيل ، و يبعد النجعة ، و كله بناء منهار ، و قصة جحا[1] ، و بذلك يضل الانسان عن طريق الهدى ، و يبعد عن الله ، ويجرى وراء الخلق ، فلايتحقق إلا ما قدره الله ، و جرى به قلم القضاء ، لا تنفع فيه هذه الاعتقادات ، و كلها وساوس شيطانية ، لا يكاد الانسان يخرج منها ، فيخسر دينه ، و يخلد فى النار .

---

(١) شخصية أسطورية يضرب بها المثل ، فى الاسترسال ؛ وإرخاء العنان فى التخيل و التمنى ، و ما هو إلا كمن يحاول القبض على الرياح ، أو يكتب على سطح الماء .

جحد المشركين بنعمة الله ، و تفنن فى تعظيم غير الله و شكره :

و قال الله تعالى : « هو الذى خلقكم من نفس واحدة ، و جعل منها زوجها ليسكن إليها ، فلما تغشاها حملت حملا خفيفاً فمرت به ، فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين . فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون » (١) .

و قد دلت الآية على قلة وفاء الانسان و كنوده ، و كفره بالنعمة ، فقد خلقه الله ، و رزقه زوجاً يأنس بها ، ويتعاون معها على قضاء الحياة السعيدة الهنيئة ، و جعل بينهما مودة و رحمة ، فلما قرب المخاض ، و بدت آثار الولادة دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين ، فلما رزقا الولد ، أقبلا على غير الله بالخضوع و النذر ، و تقديم القرابين ، فمنهم من يأخذ الولد إلى قبر ، و منهم من يحمله إلى نصب ، ومنهم من يرسل فى رأسه ضفيرة باسم أحد الصالحين ، أو الأولياء المقربين ، و منهم من يقلده قلادة ، و منهم من يقيد رجله بقيد ، ومنهم من يرسله عافياً ليستجدى الناس و يكدى ، و لا يشتغل بشئ من أمور الدنيا ،

---

(١) سورة الأعراف الآيتان ١٨٩ ١٩٠

يقال هذا صعلوك فلان من الصالحين ، و منهم من يسمى ولده نبي بخش « هبة نبي » أو بعلى بخش « عطاء على » أو بير بخش « رزق الشيخ » أو سيتلا بخش ، أى منحة سيتلا (١) ، و هى الالهة التى يتق بها من الجدرى (٢) ، أو بكنكا بخش ، هدية نهر الكنج

---

(١) اسم إلهة هندية يعتقد عبادها أنها تملك مرض الجدرى ، فلا يصاب الانسان به إلا بارادتها ، و لا يشفى منه إلا باذنها ، وقد يطلق هذا اللفظ على مرض الجدرى أيضاً ، (راجع معجم نور اللغات ج ٣/ ص ٤٠)

(٢) ويظهر أن اللجوء إلى غير الله من آلهة منحوتة ، وشخصيات متخيلة فى تفريج الكرب والشفاء من الأمراض ، قد انتشر قديماً فى الهند ، خصوصاً فى النساء الجاهلات من الأمة الاسلامية ، فقد جاء فى رسالة للامام أحمد بن عبد الأحد السرهندى المتوفى ١٠٣٤هـ . كتبها إلى امرأة صالحة من أتباعه ما ترجمته : لقد أدى كثيراً من النساء إمعانهن فى الجهالة إلى الاستعانة الممنوعة فى الشريعة الاسلامية بغير الله ، و دفع البلاء بأسماء مصطنعة ما أنزل الله بها من سلطان فتورطن بذلك فى الشرك والعادات الشركية تورطاً قبيحاً ، و يظهر ذلك جلياً ، إذا انتشر مرض الجدرى الذى تسميه النساء فى الهند « بسيتلا » فتقع الصالحات منهن ★

المقدس عند الهنادك ، و الله غنى عن عبادتهم و نذورهم ، فلا يضرونه ، و لا ينقصون من ملكه شيئاً ، ولكن على أنفسهم يجنون ، و يستحقون سخط الله و لعنته .

تطفيف الكيل مع الله ، و إيثار عليه :

وقال الله تعالى : « وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً ، فقالوا هذا لله بزعمهم ، وهذا لشركائنا ، فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله ، و ما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون (١) » .

و هذا شأنهم فى الزروع ، فهم يطففون الكيل مع الله ، و يكفرون نعمة الله ، فهم أكثر أدباً ، و أشد دقة فى استيفاء ما قسموا لشركائهم ، فلا يتساهلون فيه ، و لا يسمحون بأن تعبث به يد ، أو يعتدى عليه معتد ، أما ما كان لله فمعرض للخطر و التلف ، و الزيادة و النقصان ، ينقص و لا يزداد ، و ما ضم

★ و الطالحات فريسة لهذا الجهل و الكفر ، ويندر وجود امرأة سلمت من دقائق هذا الشرك ، وامتنعت عن التمسك بتقليد من التقاليد الشائعة فى هذا الأوان إلا من عصم ربك . مكتوب رقم ٤١/٣ رسائل الامام أحمد بن عبد الأحد السرهندى .

(١) سورة الأنعام الآية ١٣٦ .

منه إلى قسط الشركاء فلا بأس به (١) .

شرع ما لم يشرع ،
و التزام ما لا يلزم :

وقال الله تعالى : « وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم ، وأنعام حرمت ظهورها ، وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراءً عليه ، سيجزيهم بما كانوا يفترون » (٢) .

و المقصود أن الناس يشرعون شرائع ، ويلتزمون التزامات ، ليس مصدرها وحى أو إلهام ، أو تشريع إلهى ، إنمـــا هى مجرد الأهواء والظنون ، فيقولون : الطعام الفلانى محظور مقدس يتناوله فلان ، ولا يمسه فلان ، و قد يسيبون أنعاماً ويحرمون ظهورها ، فلا يركبها أحد ، و لا يحمل عليها حمل ، فانها خصصت لفلان ، وقصد بها التقرب إليه فيجب تعظيمها ، وأنعام لا يذكرون اسم الله

(١) وهذا شأن كل من كلف التقسيم أو الانصاف بين فريقين ، فريق يتصل به بعاطفة وحب ، وخوف و رجاء ، وفريق كانت صلته به ضعيفة سطحية ، أو تقليدية قانونية ، لا يجد فى نفسه اندفاعاً أوحماساً للانصاف معه ، أو إيفائه حقه ، فيبخس نصيبه من حيث يشعر أو لا يشعر .

(٢) سورة الأنعام الآية ١٣٨ .

عليها ، و إنما ينوون بها التقرب إلى غير الله ، و الذبح باسمه ، ثم يعتقدون أنهم بذلك ينالون رضا الله ، ويقضى الله بذلك حاجاتهم ، و كله افتراء سيلقون جزاءه .

و قال الله تعالى : « ما جعل الله من بحيرة و لا سائبة ولا وصيلة و لا حام (١) ، ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب ، و أكثرهم لا يعقلون (٢) » .

---

(١) و يفسر هذه الآية ما رواه البخارى فى صحيحه بسنده ، عن سعيد بن المسيب قال : « البحيرة التى يمنع درها للطواغيت ، فلا يحلبها أحد من الناس ، والسائبة التى كانوا يسيبونها لآلهتهم لا يحمل عليها شئ ، قال وقال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ رأيت عمرو بن عامر الخزاعى يجر قصبه فى النار كان أول من سيب السوائب ، و الوصيلة الناقة البكر تبكر فى أول نتاج الابل ، ثم تثنى بعد بانثى ، وكانوا يسيبونها لطواغيتهم ، إن وصلت إحداهما بالأخرى ليس بينها ذكر ، والحام ، فحل الابل يضرب الضراب المعدود ، فاذا قضى ضرابه ، و دعوه للطواغيت ، وأعفوه من الحمل فلم يحمل عليه شئ ، و سموه الحامى » .

(٢) سورة المائدة الآية ١٠٣ .

و قد ذكر الله أن شيئاً من ذلك لم يشرعه الله ، إنما هو افتراء منهم ، و قد دلت الآية على أن تخصيص دابة باسم رجل ممن يعتقد فيهم « القدرة على النفع و الضرر ، و الحماية والنصر » و إشعارها بذلك ، و تعيين أن لا يتقرب إلى فلان إلا ببقرة ، و لا إلى فلان إلا بشاة ، و لا إلى فلان إلا بدجاجة ، كلها تشريعات باطلة ، ما أنزل الله بها من سلطان ، و التزامات ليس مصدرها إلا السفاهة ، والهذيان ، ومعارضة أحكام الله وشريعته .

و قال الله تعالى : « و لا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون » (١) .

والمقصود النهى عن الاستبداد والافتيات فى التحليل والتحريم ، و الاباحة و المنع ، اعتماداً على الأهواء و الأعراف ، والتقاليد ، و العادات ، فان هذا من التشريع فى الدين ، و التشريع من حق الله سبحانه وحده .

أما مايعتقده بعض الناس ، أن من فعل كذا تحققت مطالبه ، و إلا أصيب بالاخفاق ، و تطرق إليه الفساد ، فهذا لا أصل له ، فانه لا يفلح المفترى على الله .

---

(١) سورة النحل الآية ١١٦ .

ويدخل فى هذا التحذير ما شاع فى الناس من النهى عن أكل التنبول ، و لبس الثوب الأحمر فى شهر محرم ، و خوفهم من ارتكاب هذين الأمرين ، و من تناول الرجال لطعام يطبخ للسيدة فاطمة ، و ما يلتزمه الناس من خضر فى تهيئة هذا الطعام ، وأن تتجمل النساء اللاتى يتناولن هذا الطعام بكذا و كذا من أسباب الزينة ، ولا تأكله جارية ، وامرأة تزوجت بزوج ثان ، ولا تقربه امرأة من الطبقة الوضيعة على عرف أهل الهند ، و لا فاجرة ، وما تعارفه الناس من تخصيص الخبيص (١) ، يزاد الشيخ عبدالحق وما يوصون به من الأخذ بالاحتياط ، و التزام الأدب فى تهيئته ، و يمنع منه من يستعمل النارجيلة ، و ما خصص لشاه مدار ، و الشيخ أبي على (٢) القلندر ، و لأصحاب الكهف من أطعمة لها أنواع خاصة ، وأوزان محدودة ، وما اعتاده الناس ، وتمسكوا به من تقاليد و عادات فى الأعراس ، و الزواج ، و على إثر

(١) الخبيص : الحلواء المخبوصة ، وخبص الشئ بالشئ : خلطه .

(٢) هو شرف الدين أبو على القلندر البانى‌بتى أحد الأولياء المشهورين بأرض الهند ، أخذ الطريقة عن الشيخ شمس الدين التبريزى ، و كان فى الطريقة السهروردية ، كانت وفاته سنة ٧٢٤هـ ، ودفن فى « بانى بت » .

موت رجل من الأقارب ، و فى المآتم ، و ما يحرم من الزواج بعد موت رجل من الأقارب و العظماء ، ويمنع هؤلاء عن حضور هذه الأعراس ، و ما يكره من أعمال ، و صنع بعض الأطعمة ، و صنع بعض أنواع الكامخ و المخللات فى البيوت ، و لبس ملابس من اللون الأزرق لبعض الناس ، ومن اللون الأحمر لبعض الناس ، وبعض أنواع القماش لبعض الطبقات (١) ، فكل ذلك من اختراع الناس ، و تفننهم فى الضلال ، و الحكم بغير ما أنزل الله ، ومن أنواع الشرك و التدخل فى ملكه و ملكوته ، و معارضة شرعه بشرع يشترعونه .

اعتقاد التأثير فى الأنواء والكواكب
فى العالم ، إشراك بالله :

أخرج الشيخان عن زيد بن خالد الجهنى ، قال صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليل فلما انصرف أقبل على الناس ، فقال هل تدرون ماذا قال ربكم ، قالوا الله و رسوله أعلم ، قال قال: أصبح من عبادى مؤمن بى ،

(١) هى أعراف وعادات جاهلية تسربت إلى مسلمى الهند بحكم اختلاطهم لجيرانهم الوثنيين والبراهمة ، واشتد تمسكهم بها ، حتى كأنها نصوص قرآنية ، وأحكام شرعية ، بل هى أشد .

وكافر بي ، فأما من قال مطرنا بفضل الله و رحمته ، فذلك مؤمن بي ، و كافر بالكواكب ، و أما من قال مطرنا بنوء كذا ، فذلك كافر بي ، و مؤمن بالكواكب .

و مغزى الحديث أن من اعتقد للنجوم تأثيراً فى العالم ، و ما يحدث فيه من الحوادث ، كان عند الله ممن كفر به ، وعبد النجوم ، و من عزا كل ما يحدث فى العالم من خير وشر ، ومن حوادث و أمور إلى الله وحده كان عند الله من عباده المقبولين ، الذين تبرأوا من عبادة النجوم والكواكب .

و قد دل الحديث على أن الايمان بأن من الساعات ما تأتى بالسعد و منها ما تأتى بالنحس ، وسؤال المنجمين عن ساعة سعد ونحس ، والاعتماد الكلى على مايخبرون به ، من الشرك ، فان لها صلة بالنجوم ، والايمان بالنجوم وتأثيرها من خصائص عباد الكواكب .

الاعتماد على العرافة و الكهانة ، والمخبرين بالمغيبات كفر وجبت :

أخرج رزين عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ : من اقتبس باباً من علم النجوم بغير ما ذكر الله ، فقد اقتبس شعبة من السحر ، المنجم كاهن ، و الكاهن ساحر ، و الساحر كافر .

و معلوم أن الله تبارك و تعالى قد ذكر النجوم والكواكب

فى كلامه ، فانها آية من آيات الله ، و تنطق بقدرته وحكمته، وقد زين الله بها السماوات الدنيا ، و هى رجوم للشياطين ، و لم يذكر أن لها دخلا فى ملكوت السماوات و الأرض ، ولها صلة بسعادة البشر وشقائهم ، فمن عدل عما ذكره الله من فوائدها إلى ما لم تخلق له هذه النجوم ، و يستدل بها على الغيب ، كما يفعل البراهمة من تلقف بعض الأخبار من الجن ، و إخبار الناس بها ، و يقال لها بالعربية الكهان ، فطريق المنجم و الكاهن سواء ، والكهان يتوددون إلى الجن ، كما يفعل السحرة بالايمان بهم و ندائهم ، و تقديم النذور و القرابين إليهم ، فهذا كله من الكفر .

أخرج مسلم عن حفصة زوج النبي ﷺ قالت : قال النبي ﷺ : من أتى عرافاً فسأله عن شئ لا يقبل صلاته أربعين يوماً .

وقد عرفنا من هذا الحديث أن من أتى العراف الذى يدعى الاخبار بالغيب ، لم تقبل عبادته أربعين يوماً ، لأنه قد أشرك ، والشرك يطمس نور العبادات كلها ، ويدخل فى هذا الحكم المنجمون و الرمالون ، و المشتغلون بعلم الجفر ، و من يدعى الكشف المطلق « الذى لا يخطئ و لا يقع خلافه أبداً » ومن يدعى الاطلاع على الغيب ، و الاخبار به عن طريق الاستخارة بالقطع و البت .

مظاهر ضعف الاعتقاد والسخافة فى أهل الجاهلية ، و مقلديهم من المسلمين :

و يؤيد هذا الحديث أحاديث أخرى صحيحة ، منها ما أخرج أبو داؤد ، عن قبيصة أن النبى ﷺ قال : العيافة ، و الطرق ، و الطيرة ، من الجبت .

و ما أخرج أبو داؤد عن عبد الله بن مسعود عن رسول الله ﷺ قال : الطيرة شرك ، الطيرة شرك ، الطيرة شرك .

و قد اعتاد العرب التطير ، و قد نهى رسول الله ﷺ عن ذلك مرة بعد أخرى ليقلع الناس عن هذه العادة .

ومنها ما أخرج أبو داؤد عن سعد بن مالك أن رسول الله ﷺ قال لا هامة و لا عدوى و لا طيرة ، و إن تكن الطيرة فى شئ ففى الدار ، و الفرس و المرأة (١) .

---

(١) و روى البخارى من حديث ابن عمر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : الشؤم فى الدار و المرأة و الفرس ، و تفسيره ما رواه الطبرانى من حديث أسماء بنت عميس قالت : يا رسول الله ما شؤم الدار ؟ قال : ضيق ساحتها وخبث جيرانها ، قيل : فما شؤم الدابة ؟ قال : منعها ظهرها وسوء خلقها ، قال : فما شؤم المرأة ؟ قيل عقم رحمها وسوء خلقها .

و قد اشتهر فى جهال العرب أن من قتل و طل دمه ، و لم يؤخذ بثأره ، خرج من هامته طائر ، يقال له الهامة ، و هى كالبومة ، فما تزال تستغيث ، وتهيم على وجهها ، حتى يؤخذ بثأره ، و قد ذكر النبي ﷺ أنه باطل ، فمن زعم أن الانسان يتمثل بعد موته بحيوان ، فقد كذب على الله ، وكان من الاعتقادات الشائعة فى العرب أن بعض الأمراض ، كالجرب و الجذام ، تتعدى ، وتنتقل من إنسان إلى آخر ، وهى كلها اعتقادات باطلة ، وشائعات لا أصل لها .

وظهر من هذا ، أنه ما اعتاده الناس من الابتعاد عن ولد يصاب بالجدرى ، ومنعهم الأولاد عن أن يقتربوه مخافة أن يصابوا بهذا المرض قطعاً ، فهو من عادات الجاهلية كذلك (١) .

و قد اشتهر عندهم أن الأمر الفلانى لم يوافق فلاناً ، و أنه لم يوفق فيه ، و لم يكن النجاح حليفه ، و إن كان لليمن و الشؤم أصل ، فهما فى الدار ، و الفرس ، و المرأة ، فقد تكون ميمونة مباركة ، و قد تكون تعسة مشؤومة ، و لكن لسان النبوة لم يحدد السبيل إلى معرفة ذلك ، حتى يحكم الانسان بيمنها و شؤمها ،

---

(١) هذا إذا كان الاعتقاد مبنياً على تأثير قوة لا تبصر ؛ أو على عقيدة دينية ، أساسها التصرف ؛ أو القدرة على الاصابة .

و ما عينه الناس من أمارات لذلك مثل الدار التى يصور الناس على بابها ، و على ميزابها فم الأسد ، و مثل أن يكون على جبين الفرس مثل نجم ، و أن تكون المرأة سوداء اللسان، فهى مشئومة، فلا أصل له ، بل يجب على المسلمين أن لا يحتفلوا بأمثال هذه التوهمات ، و يجب عليهم إذا اشتروا بيتاً جديداً ، أو استأجروه أو ظفروا بجواد ، أو تزوجوا عقيلة أو جارية ، أن يدعوا الله أن يقدر فيها الخير ، و يبارك فيها ، و يتعوذوا بالله من شرها ، و شر ما جبلت عليه ، و لا يشغلوا نفوسهم بالحكم على أمور قد مضت ، فيقولوا وافقنا الأمر الفلانى ، و لم يوافقنا الأمر الفلانى .

أخرج البخارى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ لا عدوى (١) و لا هامة و لا صفر .

---

(١) وردت أحاديث بنفى العدوى كما جاء فى الحديث الذى رواه البخارى ، ووردت أحاديث فى إثباتها ومنها « فر من المجذوم فرارك من الأسد » وكثرت أقوال العلماء فى ذلك والمرجح حمل الخطاب بالنفى والاثبات على حالتين مختلفتين فحيث جاء « لاعدوى » كان المخاطب بذلك من قوى يقينه وصح توكله بحيث يستطيع أن يدفع عن نفسه اعتقاد العدوى فعلى هذا يحمل حديث جابر فى الأكل مع المجذوم كما سيأتى فى متن ★

و قد اشتهر فى الجهال أن الذى أصيب بالنهامة فيأكل و لا يشبع ، و يسميه الأطباء بجوع الكلب ، والعامة بجوع البقر ، فقد دخل فى بطنه عفريت أو شيطان يأكل كل ما يتناوله الانسان فلا يشبع ، و كانوا يسمونه بصفر (١) ، و هو الذى جاء نفيه فى هذا الحديث .

★ الكتاب و سائر ما ورد من جنسه ، و حيث جاء « فر من المجذوم » كان المخاطب بذلك من ضعف يقينه فلا يكون له قوة على دفع اعتقاد العدوى فأريد بذلك من باب اعتقاد العدوى ، و قد فعل ﷺ كلا الأمرين ليتأسى به كل من الطائفتين ، وقال بعضهم إن المراد بالنفى أن شيئاً لا يعدى بطبعه نفياً لما كانت الجاهلية تعتقده بل باجراء الله تعالى العادة فى التعدى ، انتهى مقتبساً من « لامع الدرارى على جامع البخارى » للمحدث الكبير الشيخ محمد زكريا الكاندهلوى .

(١) قال القسطلانى فى شرح البخارى : وهو فيما قيل دابة تهيج عند الجوع ، و ربما قتلت صاحبها ، وكانوا يعتقدون أنها أعدى من الجرب ، و هذا ذكره مسلم عن جابر بن عبدالله فى حديثه المروى عنده فتعين المصير إليه » (ج٨ ص ٣١٨)

و معنى ذلك أن ما يعتقده الناس فى بعض الأمراض أنها من تأثير الشياطين ، و العفاريت ، و أنها من تصرفاتهم ، باطل لا أصل له ، مثل ما ذكرنا عن مرض الجدرى و غيره من الأمراض التى يربطها المشركون فى الهند ببعض الالاهات ، والقوى المتصرفة فى العالم .

و قد اشتهر فى الجهال أن شهر صفر نحس ، يجب أن يكف الناس فيه عن أعمال ذات قيمة وخطر ، مثل الزواج ، والأسفار ، و التجارات ، و المعاملات (١) ، و يدخل فى ذلك ما يعتقده جهال الهند أن الأيام الثلاثة عشر الأولى من شهر صفر مشؤومة نحسة بصفة خاصة ، ينزل فيها البلاء ، ويسمونها بـ « تيره تيزى(٢) » فتفسد الأعمال و تحبط المساعى ، و كذلك يخصصون بعض الأيام

---

(١) قال البيضاوى فى شرح و لا صفر : هو نفى لما يتوهم أن شهر صفر يكثر فيه الدواهى (شرح البخارى للقسطلانى ج ٨/ ص ٣١٨) و فى « مجمع بحار الأنوار » للفتنى : و قيل هو الشهر المعروف ، زعموا أن فيه يكثر الدواهى والفتن ، فنفاه الشارع (مجمع بحارالأنوار ج٢/ ص٢٥١)

(٢) الأيام الثلاثة عشر الحادة ، و « تيز » معناه « الحاد الشديد»

من الشهر بالنحس ، فيتوقفون عن مباشرة بعض الأعمال المهمة فيها، بل يجب أن يكون جل الاعتماد على الله تعالى ، و الايمان بأنه هو الضار النافع ، والمعطى المانع ، والمؤثر الحقيق فى الأشياء .

و قد أخرج ابن ماجة عن جابر أن رسول الله ﷺ أخذ بيد مجذوم فوضعها معه فى القصعة ، فقال : كل ثقة بالله و توكلا عليه .

كل كلمة تدل على الجهل بالله و إساءة الأدب معه لا يحل السكوت عليها :

أخرج أبو داؤد عن جبير بن مطعم قال أتى رسول الله ﷺ أعرابي فقال جهدت الأنفس ، و جاع العيال ، وهلكت الأموال فاستسق الله لنا ، فانا نستشفع بك على الله ، ونستشفع بالله عليك ، فقال النبى ﷺ سبحان الله سبحان الله فما زال يسبح حتى عرف ذلك فى وجوه أصحابه ، ثم قال ويحك ، إنه لا يستشفع بالله على أحد ، شأن الله أعظم من ذلك ، و يحك أتدرى ما الله ، إن عرشه على سماواته هكذا ، و قال بأصابعه مثل القبة عليه ، و إنه ليئط به أطيط الرحل بالراكب .

وقد علمنا من هذا الحديث شدة استنكار النبى ﷺ للأعرابى الذى قال إنا نستشفع بك على الله ، ونستشفع بالله عليك، وكيف

فزع لذلك ، و استشعر الخشية و هيبة الله ، و جعل يسبح الله ، و يكثر من التسبيح و التنزيه ، و تغيرت وجوه الناس من الهيبة و الدهشة ، و أوضح أن من يستشفع به على أحـــد يكون عادة أحط شأناً من الذى يشفع عنده ، وتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، فلا يستشفع به عند أحد ، و قد جرت العادة أن يستشفع عنـــد من يملك الأمر ، ببعض خاصته ، وأهل المنزلة عنده ، فيحقق الرغبة و يعطى السؤل إرضاءاً لهذا الشفيع ، و تشريفاً لقدره ، والله هو الذى يملك زمام الأمور ، و غيره ضعيف عاجز ، مفتقر إلى الله ، فكيف يستشفع به على أحد من خلقه ، لجميع الأنبياء و الأولياء إذا قيسوا بعظمة الله و جبروته ، كانوا أقل من ذرة ، و إن العرش الذى أحاط بالسماوات و الأرضين كالقبة ، ليئط به أطيط الرحل بالراكب ، فليس فى طاقـــة مخلوق أن يشرح عظمته أو أن يتخيلها ، فمن يجرؤ على أن يتدخل فى مملكته ، وينفذ فيها أمره ، إنه يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد ، و لا يحتاج فى ذلك إلى وزير أو مشير ، يصرف أموراً لا يأتى عليها الاحصاء ، و لا يبلغها الاستقصاء ، فى أقل من طرفة عين ، فكيف يشفع عنـــد غيره ، و من الذى يستبد بالأمور دونه ؟

يا للعجب إن محمداً ﷺ الذى شرفه الله على جميع خلقه

لا يكاد يسمع من أعرابي جلف كلمة تدل على جهله بالله، وقصور عقله أن يملأه الخوف و المهابة ، فيفيض فى بيان عظمة الله التى ملأت العالم من العرش إلى الفرش ، و ما بال أقوام طالت ألسنتهم ، وحملهم الطيش والجراءة ، فتشدقوا بكلام تكاد السماوات يتفطرن منه ، و تنشق الأرض ، و تخر الجبال هدآ ، و بدأوا يتكلمون عن الله جلت عظمته ، كأن بينه وبينهم دالة أو قرابة ، فقال بعضهم إنى اشتريت ربى بدانق ، ومنهم من يقول أنا أكبر من ربى بسنتين ، ويقول الثالث إذا تجلى ربى فى صورة غير صورة شيخى ، لم أرفع إليه بصرى ، و يقول شاعر : إنى أحمل قلباً قد جرح بحب محمد ﷺ و عطفه ، فأنا منافس لله تعالى أغار منه على حبيبي ، و قال بعضهم قل عن الله ما شئت متفننا ، و اذهب فى الجنون مذاهب ، و لكن إياك إياك أن تدخل فى حمى محمد ، وأن تغلب فيه على أمرك (١) ، و يقول بعضهم إن الحقيقة المحمدية أفضل من الحقيقة الالهية ، أعاذنا الله عن أمثال هذه الشطحات ، و الافتراءات ، و قد أحسن شاعر فارسى إذ قال : نسأل الله

---

(١) الأقاويل التى نقلها المؤلف ، مقتبسة عن كلام الغلاة فى مدح الرسول ﷺ ، والتعبير عن عواطفهم ، وقد اشتهر بعضها كالأمثال السائرة فى الأدب الهندى و الفارسى .

التوفيق للأدب ، فان قليل الأدب بعيد عن فضل الله .

و قد اعتاد بعض الناس إذا عرضت لهم حاجة ، أو ألمت بهم ملمة ، أن يقرأوا ورد « يا شيخ عبد القادر جيلانى شيئاً لله »(١)

---

(١) ذهب أكثر فقهاء المذاهب و محققو الصوفية إلى عدم إباحة هذا الورد ، ولهم فى ذلك مقالات وفتاوى ، نقتصر هنا على ما كتبه فخر المتأخرين العلامة الشيخ عبد الحى بن عبد الحليم اللكنوى (م ١٣٠٤ﻫ) صاحب التصانيف الكثيرة الشهيرة ، جواباً على استفتاء ورده عن هذا الورد ، يقول رحمه الله .

« إن الاحتراز عن مثل هذا الورد لازم ، أولا لأن هذا الورد متضمن كلمة « شيئاً لله » وقد حكم بعض الفقهاء بكفر من قاله ، وثانياً لأن هذا الورد يتضمن نداء الأموات من أمكنة بعيدة ، لم يثبت شرعاً أن الأولياء لهم قدرة على سماع النداء من أمكنة بعيدة ، إنما ثبت سماع الأموات لتحية من يزور قبورهم ، و من اعتقد أن غير الله سبحانه و تعالى حاضر و ناظر ، و عالم للخفى و الجلى فى كل وقت و فى كل آن ، فقد أشرك ، و سيدى الشيخ عبد القادر وإن كان من كبار أولياء الأمة المحمدية ، و مناقبه و فضائله قد جاوزت العد و الاحصاء ، إلا أنه لم يثبت أنه كان قادراً على سماع الاستغاثة والنداء من أمكنة بعيدة ، وعلى إغاثة ⟵

فى عدد مخصوص ، و مدة مخصوصة ، و دل هذا الحـــديث على كراهة هذا التعبير و شناعته ، فانه سؤال من الشيخ عبـــد القادر

** هؤلاء المستغيثين ، و اعتقاد أنه رحمه الله كان يعلم أحوال مريديه فى كل وقت ، و يسمع نداءهم ، من عقائد الشرك ، و الله أعلم ، انتهى مختصراً .

(مجموع فتاوى العلامة عبد الحى اللكنوى ج١/ ص٢٦٤)

و قد أباحه بعضهم بشروط و تأويلات و أن يكون المتمسك به يفقه ما يقول ويقصد به الاستفادة من روحانية الشيخ ، ومعلوم أن الشريعة الاسلامية عنيت بسد الذرائع للمفاسد التى هى دون الشرك بكثير ، فكيف بفساد العقيدة ، و التورط فى الشرك ، الذى ليست فوقه مفسدة ، وليت شعرى ما ألجأ النـــاس إلى ذلك ، و الله أقرب من كل قريب ، و أرحم من كل رحيم ، و هو القائل :

« و إذا سألك عبادى عنى فانى قريب ، أجيب دعوة الداع إذا دعان »

والقائل : « أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء »

و قد جاء فى وصية الامام الشيخ عبد القادر الكيلانى نفسه ، لابنه الشيخ عبد الوهاب « و كل الحوائج كلها ⊛

الجيلانى ، و توسل بالله تعالى إليه ، و العكس أصح ، فيجوز التوسل بالشيخ (١) إلى الله ، لا التوسل بالله إليه .

(✪) إلى الله عز و جل و اطلبها منه ، و لا تثق بأحد سوى الله عز و جل ، و لا تعتمد إلا عليه سبحانه ، التوحيد ، التوحيد ، التوحيد . (مجالس الفتح الربانى ص ٦٦٥)

وخطبه فى فتوح الغيب وفى الفتح الربانى ، مليئة بهذه الوصايا ، و الزجر و التوبيخ على الاستعانة بغير الله كما مر بعض النقول .

ويعجبنى ماجاء فى مجموعة مجالس العارف الكبير، والمربى الجليل الشيخ عبد الله المشهور بغلام على النقشبندى القادرى الدهلوى ، و هو من أئمة القرن الثالث عشر الهجرى فى تربية النفوس والدعوة إلى الله ، المتفق على ولايته وجلالته (١١٥٦هـ — ١٢٤٠هـ) كما روى عنه جامع هذه المجالس الشيخ رؤوف أحمد المجددى أنه رحمه الله قال : « قلت (يعنى فى بداية أمره) مرة « يا حضرة شيخ عبد القادر جيلانى شيئاً لله » فسمعت صوتاً غيبياً يطرق أذنى بحيث لا أشك فيه ، يقول : « قل : « يا أرحم الراحمين شيئاً لله »

(در المعارف ص ٥٤)

(١) على رأى من يرى التوسل بالأنبياء و الصالحين .

والحاصل أنه لا يجوز التلفظ بكلمة تشم منها رائحة الشرك ، أو إساءة مع الله فان الله هو المتعالى ، الغنى ، القادر ، الملك الجبار ، لا يبالى بأحد ، إذا شاء بطش على شئ دق و صغر ، و إذا شاء عفا عن كبير و لو كان مثل جبل . و لا يصح أن يتكلم الانسان بلفظ ظاهره إساءة الأدب . و باطنه الاجلال و التعظيم ، ويقول المتكلم تكلمت بالكلمة الفلانية و إنما أقصد غيرها ، فان الألغاز والمعميات لها مجالات كثيرة ، وهى لا تليق بالله تعالى ، ولانعرف عاقلا يهزأ بملكه أو بأبيه ، و لا يستعمل معهما الصنائع البديعية ، و الكنايات الأدبية ، التى اخترعها الأدباء ، بل يكون كلامه واضحاً يصدر عن وعى ويدل على أدب ، إن مجال هذه الأساليب الأدبية هى مجالس الاخوان و النوادى الأدبية .

الحث على إظهار شعار التوحيد فى الأسماء ، و التحذير من الكلام الموهم :

أخرج مسلم عن ابن عمر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : إن أحب أسمائكم عبد الله و عبد الرحمن .

و يدل هذا الحديث على أن أحب الأسماء إلى الله ما دلت دلالة واضحة على عبودية العبد و ذله ، وعجزه أمام الله ، وماكانت شعاراً وعلماً للتوحيد ، ومنها الأسماء التى ذكرت فى هذا الحديث

كنموذج ، و يدخل فيها أسماء أخرى كعبد القدوس ، و عبد الجليل ، و عبد الخالق ، و هبة الله ، و عطاء الله ، و جاد المولى و غيره (١) .

أخرج أبو داؤد و النسائى عن شريح بن هانىء عن أبيه ، أنه لما وفد إلى رسول الله ﷺ مع قومه سمعهم يكنونه بأبى الحكم فدعاه رسول الله ﷺ ، فقال إن الله هو الحكم وإليه الحكم ، فلم تكنى أبا الحكم .

و قد دل هذا الحديث على أن الكلمة التى لا تليق إلا بالله تعالى ، و الصفة التى هى خاصة به ، لا يجوز أن يوصف بها غيره كـ « ملك الملوك » و « ملك العالم » و « يفعل ما يشاء » و « أحكم الحاكمين » و « الحكيم المطلق » و « أغنى الأغنياء » (٢) .

---

(١) ذكر المؤلف هنا أسماءاً هندية ترجمتها بالعربية كما ذكرنا ، والمقصود منها الأسماء التى أضيفت إلى الله خصوصاً الأسماء الحسنى التى لا تطلق على غير الله .

(٢) و قد روى التاريخ من مبالغة الشعراء و الندماء ، وأهل الملق و النفاق فى تلقيب ملوك عصرهم و أمرائه بألقاب وإطرائهم لهم ، ما يحرمه الشرع ، ويمجه الذوق السليم ، و قد لقب هؤلاء الملوك أنفسهم فى بعض الأحيان ألقاب ←

و يؤيده ما أخرج فى شرح السنة عن حذيفة عن النبي ﷺ قال لاتقولوا ما شاء الله ، وشاء محمد ، وقولوا ما شاءالله وحده.

فقد جاء فيه تحريم إشراك مخلوق فى فعل يختص بالله تعالى، و وصفه بصفة لا تليق إلا بالله تعالى ، مهما بلغ هذا المخلوق من جلالة الشأن و قرب المكان ، فيقول مثلا ، ما شاء الله ، و شاء

= تدل على قلة علمهم وجراءتهم على الله ، و غرورهم بالملك الزائل ، و السلطان الراحل ، و قد نقل التاريخ بيتاً لعضد الدولة فناخسرو بن ركن الدولة بن بويه الديلمى المتوفى ٣٧٢هـ، هو خير مثال لهذا الطيش والوقاحة ، وهو قوله :

أنا عضد الدولة و ابن ركنها
ملك الأملاك غلاب القـــدر

وما أضفى الغلاة من المحبين والمعتقدين على مشايخهم ، و على الأولياء و الصالحين من ألقـاب و نعوت ، أدهى و أمر .

و لم يزل العلماء الغيارى على الدين ، و أعلام هـذه الأمة ينكرون على هؤلاء المبالغين المتملقين ، ومما يستطرف فى هذا الباب ، ما نقله المؤرخون عن سلطان العلماء شيخ الاسلام عز الدين بن عبد السلام ، أنه لمـــا توفى الخليفة ببغداد أيام الملك الصالح، عمل الملك له عزاء ، جمع فيـه =

رسوله ، لأن الله وحده هو يملك هذا العالم و يتصرف فيه بما شاء ، لا يشاركه فى ذلك الرسول ، أو يسأل أحد رجلا : أخبرنى بما يهجس فى ضمير فلان ، أويدور بخلده ، ومتى يتم الأمر الفلانى ، وما عدد الأوراق التى تحملها هذه الشجرة ، وما هو عدد النجوم؟ فيقول جواباً : الله و رسوله أعلم ، لأن الله وحده يعلم الغيب ، أما إذا سئل أحد عن شئ فى الدين ، فلا بأس أن يقول : الله و رسوله أعلم ، أو يقول : إن الله و رسوله أمرا بكذا ، لأن الله قد أطلع رسوله على أمور الدين ، و الله أمر عباده بطاعته .

= الأكابر و الأعيان ، و القراء و الشعراء ، فأنشد بعض الشعراء فى مرثيته :

مات من كان بعض أجناده المو
ت و من كان يختشيه القضاء

فأنكر عليه الشيخ عز الدين بن عبد السلام رحمه الله تعالى ، و أمر بتأديبه و حبسه ، و أقام بعد التعزير فى الحبس زماناً طويلا ، ثم استتابه بعد شفاعة الأمراء والرؤساء فيه ، و أمره أن ينظم قصيدة يثنى فيها على الله تعالى كفارة لما تضمنه شعره من التعرض للقضاء .

(الابداع فى مضار الابتداع للشيخ على محفوظ ص١٢٥)

الحلف بغير الله إشراك بالله :

أخرج الترمذى عن ابن عمر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : من حلف بغير الله فقد أشرك .

و أخرج مسلم عن عبد الرحمن بن سمرة قال : قال رسول الله ﷺ ، قال إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت .

أخرج الشيخان عن أبى هريرة عن النبى ﷺ ، قال من حلف فقال فى حلفه باللات و العزى ، فليقل لا إله إلا الله .

و قد دلت هذه الأحاديث على أن الحلف بمن كان يحلف به المشركون فى الجاهلية يضر بالايمان والعقيدة ، فاذا صدر هذا من مسلم ، فليقل لا إله إلا الله .

لا يجوز النذر لغير الله والذبح فى مكان كان فيه وثن ، أوعيد من أعياد الجاهلية :

أخرج أبو داؤد عن ثابت بن ضحاك ، قال نذر رجل على عهد رسول الله ﷺ أن ينحر إبلا ببوانة، فأتى رسول الله ﷺ فأخبره ، فقال رسول الله ﷺ هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد ، قالوا : لا ، قال كان فيها عيد من أعيادهم ، قالوا : لا ، فقال رسول الله ﷺ أوف بنذرك ، فانه لاوفاء لنذر فى معصية الله .

وقد دل هذا الحديث على تحريم النذر لغير الله، فلايحل هذا النذر ابتداءاً ، فان أخطأ أحد لجهله للدين ، فلا وفاء عليه، و لا يجوز التمادى فى خطأ ، أو الالحاح والتشبث بذنب ، بل هو ذنب أكبر ، وقد دل الحديث كذلك على أنه لا يجوز سوق دابة تذبح لله إلى مكان ، تقرب فيه القرابين لغير الله ، أو يعبد فيه غيره ، و يجتمع الناس هناك على شرك ، و إن صحت النيـــة و صلحت العقيدة .

النهى عن الافراط و التفريط فى تعظيم النبى ﷺ :

أخرج أحمد عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ كان فى نفر من المهاجرين و الأنصار ، فجاء بعير فسجد له ، فقـــال أصحابه : يا رسول الله ، يسجد لك البهائم ، والشجر ، فنحن أحق أن نسجد لك ، فقال اعبدوا ربكم و أكرموا أخاكم (١).

ويفهم من هذا الحديث أن الناس إخوان ، فمن فاق منهم فى فضل ، و علت منزلتـــه ، و كبرت سنه ، كان بمنزلة الأخ الأكبر ، و استحق الاكرام الزائد، و الله رب الجميـــع ، و هو

(١) قال العلامة على بن السلطان محمد الهروى المكى المعروف بالملا على القارى فى مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح فى شرح قوله ﷺ « أكرموا أخاكم » : « أى عظموه تعظيما يليق —

الذى يستحق العبادة .

— له بالمحبة القلبية ، والاكرام المشتمل على الاطاعة الظاهرية والباطنية وفيه ، إشارة إلى قوله « ماكان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب و الحكم و النبوة ، ثم يقول للناس كونوا عباداً لى من دون الله ، و لكن كونوا ربانيين » ، و إيماء إلى قوله « ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى و ربكم » .

و أما سجدة البعير فخرق للعادة واقع بتسخير الله تعالى و أمره ، فلا مدخل له ﷺ فى فعله ، و البعير معذور ، حيث إنه من ربه مأمور ، كأمر الله ملائكته أن يسجدوا لآدم ، و الله سبحانه و تعالى أعلم ، و قال الطيبى رحمه الله : قاله تواضعاً وهضما لنفسه ، يعنى أكرموا من هو بشر مثلكم ، و مفرع من صلب أبيكم آدم ، و أكرموا لما أكرمه الله و اختاره ، و أوحى إليه كقوله تعالى : « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى » .

(الجزء السادس ص ٢٧٧)

و قال الشيخ العلامة عبد الحق بن سيف الدين البخارى الدهلوى فى اللمعات (حاشية المشكاة) : « يريد نفسه الكريمة تواضعاً وتنبيهاً على أنه بشر مثلهم فى عدم جواز السجدة و العبادة له » (ص ٢٨٣) . . . ( )

و قد دل هذا الحديث على أن الأولياء والأنبياء ، والأئمة، وأبناءهم، والمشايخ والشهداء كلهم بشر، وكلهم عباد خاضعون ، وهم لنا إخوان (١) ، ولكن الله فضلهم، فهم بمنزلة الاخوة الكبار الذين تقدموا فى السن ، ونحن مأمورون بطاعتهم ، و نحن بالنسبة إليهم صغار ، و يجب أن نعظمهم كبشر ، لا كاله .

و دل الحديث كذلك على أن بعض الأشجار ، و بعض الحيوانات ، قد تحترم بعض الصالحين ، و هنا أمكنة تنسب إلى بعض الصالحين ، ومقابر يأتى إليها بعض الأسود ، و منها ما يأتى إليها بعض الأفيال ، ومنها ما يأتى إليها بعض الذئاب(٢) ، ولكن لا يصح الاحتجاج بها ، بل يجب على الانسان أن يعظم من يستحق التعظيم بما أمر الله به ، وجاء به الشرع ، ولم يأمر الشرع بالعكوف على قبر ، و سدانته ، فان ربض أسد على قبر لايتحول عنه ، فلا يصح التمسك بذلك ، فانه لا يحسن بالانسان العاقل (فضلا عن المسلم الواعى) أن يقلد الحيوانات .

أخرج أبوداود عن قيس بن سعد ، قال أتيت الحيرة ،

---

(١) فى الأصل و الخلق فالرب واحد و الأب واحد ، كلكم من آدم و آدم من تراب » .

(٢) لحكمة و سر لا يعلمه إلا الله .

فرأيتهم يسجدون لمرزبان لهم ، فقلت : لرسول الله ﷺ أحق أن يسجد له ، فأتيت رسول الله ﷺ فقلت : إنى رأيت الحيرة ، فرأيتهم يسجدون لمرزبان لهم ، فأنت أحق أن نسجد لك ، فقال لى : أرأيت لو مررت بقبرى أكنت تسجد له ، فقلت لا ، فقال لا تفعلوا .

و قد نبه رسول الله ﷺ قيس بن سعد رضى الله عنه ، على أن من كان مآله الموت ، ومصيره إلى القبر ، يموت فيدفن ، لا يستحق السجدة ، إن السجود للحى الدائم الذى لا يموت ، وعرف من هذا أنه لا يجوز السجود لحى و لا لميت ، ولا لقبر ، و لا لنصب ، فان كل نفس ذائقة الموت ، و الحى لا يتجرد عن البشرية وخصائصها ، فكيف يصير إلهاً يسجد له إذا فارق الحياة فالعبد عبد حياً و ميتاً .

التحذير عن الكلمات الموهمة للشرك :

أخرج مسلم عن أبى هريرة قال ، قال رسول الله ﷺ لا يقولن أحدكم عبدى و أمتى ، كلكم عبيد الله ، و كل نسائكم إماء الله ، و لا يقل العبد لسيده مولاى ، فان مولاكم الله .

و قد دل هذا الحديث على أنه لا يصح أن يخاطب السيد عبده ، فيقول يا عبدى ، و أن يضيف ذلك إلى نفسه ، و إن

كان فى الحقيقة رقيقاً له ، أو أن يقول أحد : فلان عبد لفلان ، أو أن يقول العبد لسيده : مولاى ، وهذا فيمن كانوا عبيداً وسادة، فكيف بمن يدعى العبودية زوراً ، و يلقب نفسه بعبد النبي ، وعبد على ، و عبد صاحب الجلالة ، و العبد الخاص ، و ما اعتاده الشعراء ، و الأدباء ، و الغلاة فى الحب و الغرام و الاعتقاد ، من إطلاق كلمة « عبدالغلام الأمرد » و « عانى الحبيب» و «عابد الشيخ الجليل (١) » ، و الافتخار بذلك ، أما السخاء بألقاب « رب الأرباب (٢) » و الجواد المطلق ، فلا محل له البتة ، ولا مبرر ، و هو غاية فى إساءة الأدب مع الله ، و ما تعوده بعض الناس من أن يقولوا لبعض الناس : أنت تملك حياتى و مالى ، ونحن فى تصرفك ، تفعل ما تشاء ، فهو كذب ومين ، وشرك .

النهى عن تقليد النصارى فى
إطراثهم لنبيهم ، وغلوهم فيه :

أخرج الشيخان عن عمر قال قال رسول الله ﷺ : لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى بن مريم ، فانما أنا عبده ،

(١) و هذه التعابير شائعة فى الأدب الفارسى والهندى ، مثل ، شاهد پرست ، و آشنا پرست ، و پير پرست ، و حسن پرست ، و كافر عشق ، و غير ذلك ، انتهى .
(٢) (خداوند خدائيكان) .

فقولوا عبد الله و رسوله .

و مقصود الحديث أن منصب الرسالة يتضمن جميع المحاسن ، و الفضائل التى أكرمنى الله بها ، فاذا أطلقت على هذه الصفة ، و قيل : « رسول الله » فلا مزيد على ذلك ، فان الرسالة هى الغاية القصوى التى يصل إليها بشر ، و كل ماعدا ذلك من المنازل فهو دونها ، لذلك قال رسول الله ﷺ « فقولوا عبد الله و رسوله » .

و لكن لا يعزبن عن البال أن البشر إذا أكرم بالرسالة ، لا يتجرد عن البشرية ، و حسبه فخراً أن يكون عبداً لله تعالى ، لا يتلبس بذلك بالألوهية ، و لا يذوب فى ذات الله تعالى (١) ، فلا يحل القول بذلك لعبد من عباد الله ، و كفر النصارى بهذا الاعتقاد فى المسيح عليه الصلاة والسلام ، و بعدوا عن الله تعالى ، ولذلك نهى رسول الله ﷺ أمته عن تقليد النصارى فى إطرائهم لنبيهم و غلوهم فيه ، فاستحقوا غضب الله و لعنه .

ولكن الغلاة من هذه الأمة ، مع الأسف ، لم يمتثلوا أمر النبي ﷺ ، و حكوا النصارى فى أقاويلهم ، وما زاد النصارى على

---

(١) كما يذوب الخل فى الماء ، كما يعتقد بعض الفرق من النصارى .

أن قالوا: إن الله سبحانه وتعالى قد ظهر فى صورة عيسى بن مريم وكسوته ، فهو بشر من جهة و إله من جهة أخرى ، و قد قال بعض غلاة المسلمين مثل ذلك عن رسول الله ﷺ ، وتفننوا فيه، فقال بعضهم : لقد كان الله فى ذهاب و إياب فى كل قرن حتى ظهر فى صورة عربي أخيراً ، و مالك العالم ، وقال بعضهم : إن القضاء قد أركب على ناقة واحدة ظعينتين ، إحداهما سلمى الحدوث (١) ، وأخراهما ليلى القدم (٢) ، و مالم يكتب قلم القضاء فى لوح العالم الامكان والوجوب، لم يتعين مورد للاطلاق المطلق.

و قد تطرف بعض من لا يخشون الله فنسبوا ذلك إلى النبى ﷺ فزعموا أنه قال : « أنا أحمد بلا ميم » و قد زوروا عبارة عربية طويلة جمعوا فيها خرافات كثيرة، و سموها بخطبة الافتخار و عزوها إلى سيدنا على بن أبي طالب رضى الله عنه ، سبحانك هذا بهتان عظيم ، خذل الله الكذابين وفضحهم ، وكما أن النصارى يزعمون أن المسيح عليه السلام يملك الدنيا والآخرة ، فيدبر الأمر كما يشاء ، فمن آمن به ، وتضرع إليه لم يحتج إلى شئ من العبودية و العبادة ، و ما ضره ذنب ، ولا فرق له بين حلال وحرام ،

---

(١) يعنون بهذا الحدوث حدوث النبى صلى الله عليه و آله و سلم .
(٢) يعنون بها الذات الالهية القديمة .

فيكون لله كسائبة حبلها على غاربها ، و يخاصه عيسى بن مريم فى الآخرة بشفاعته عن النار و عن العذاب .

و مثل هـذا يعتقد بعض الجهلة المسلمين فى النبي ﷺ ، وتنزلوا ، فاعتقدوا فى أئمة أهل البيت ، وأولياء الأمة ، بل و فى المشايخ مثل هذا الاعتقاد ، نسأل الله لنا ولهم الهداية .

أخرج أبو داؤد عن مطرف بن عبد الله بن الشخير، قال، انطلقت فى وفد بنى عامر إلى رسول الله ﷺ فقلنا : أنت سيدنا، فقال السيد الله ، فقلنا : وأفضلنا فضلا ، وأعظمنا طولا ، فقال : قولوا قولكم ، أو بعض قولكم فلا يجترئنكم الشيطان .

و قد أمر النبى ﷺ فى هذا الحديث بالاقتصاد والتوسط ، و تحرى الدقة ، فى مدح من يعتقد فيهم الفضل ، و أن لا يتخطى فى ذلك حدود البشرية فيلحقه بالله ، وأن لا يكون المادح كفرس جموح لا يمكه فارس ، و لا يضبطه زمام ، فيسيئ بذلك الأدب مع الله و يتورط فيما لا يحمد عقباه .

و ليعلم أن « السيد » له معنيان ، فقد يراد به السيد الذى يملك الأمر بالاطلاق ، و لا يخضع لأحد فيفعل ما يشاء شأن الملوك فى الدنيا ، وهذا يختص بالله تعالى ، فلا سيد بهذا المعنى إلا الله ، و قد يراد به أحد أفراد الرعية يمتاز عن سائر الأفراد ،

بأن أمر الحاكم يتوجه إليه أولا ، ثم يبلغ الآخرين عن طريقه، كرئيس قبيلة ، أو عمدة قرية ، أو مرزبان ، و بهـــذا المعنى كل نبي سيد فى أمته ، و كل إمام مقدم على أتباعه ، و كل مجتهد قائد لمن يقتدى به ، وكل شيخ أو أستاذ له الرئاسة فى الأتباع والتلاميذ، بأنهم يقومون بامتثال أوامر الله تعالى فى نفوسهم ، ثم يعلمونها من دونهم ، و هكذا ، فان نبينا ﷺ هو سيد العالمين ، و منزلته عند الله فوق كل منزلة ، و هو أشد الناس امتثالا لأوامر الله تعالى ، و الخلق كلهم عيال عليه ، فى الاهتداء إلى الله ، و معرفة أحكامه و مرضياته ، و بهذا المعنى يصح أن نسميه بسيد العالمين ، بل يجب هذا الاعتقاد ، أما بالمعنى الأول وهو السيطرة على العالم ، و التصرف بمطلق الارادة ، كما يتصرف الملوك القـــاهرون ، فلا يصح ولا يجوز ، فانه لا يتصرف فى أضعف مخلوق تصرف السيد فى ملكه ، و الملك فى ملكه ، فضلا عن جسام الأمور ، و كبار المخلوقات .

النهى عن تعظيم صور الصالحين :

أخرج البخارى عن عائشة رضى الله عنها أنها اشترت نمرقة فيها تصاوير ، فلما رآها رسول الله ﷺ قام على الباب ولم يدخل، فعرفت فى وجهه الكراهة ، قالت : قلت يا رسول الله ، أتوب

إلى الله ، وإلى رسوله ، ماذا أذنبت ، فقال رسول الله ﷺ : مابال هذه النمرقة ، قالت ، قلت اشتريتها لك لتقعد عليها و توسدهـــا ، فقال رسول الله ﷺ إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة ، و يقال لهم ، أحيوا ما خلقتم ، وقال إن البيت الذى فيه الصور لا تدخله الملائكة .

وقد دل هذا الحديث على أن ما يفعله بعض الجهال من تعظيم صور للأنبياء أو الأئمة ، أو الأولياء ، أو المشايخ ، و يحفظونها عندهم ليتبركوا بها ضلال محض ، و إغراق فى الشرك ، و النبى و الملائكة منه براء .

بل يجب على المسلم أن يبعدها عن البيت ، ويعتقد نجاستها ، فينال بذلك رضا الرسول ﷺ وتدخل الملائكة هذا البيت ، وتحل البركة بدخولها .

أخرج البيهقى عن عبد الله بن عباس قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : أشد الناس عذاباً يوم القيامة من قتل نبياً ، أو قتله نبى ، أو قتل أحد والديه ، و المصورون ، وعالم لاينتفع بعلمه .

و بذلك تعرف شناعة عمل التصوير ، فان فاعله قد قرن فى هذا الحديث بقاتل نبى ، فاذن هو أقبح و أشق من يزيد وشمر ،

اللذين توليا كبر قتل الحسين بن على رضى الله عنهما ، و لم يكن نبياً من الأنبياء ، إنما كان سبط الرسول ﷺ .

أخرج الشيخـــان عن أبى هريرة ، قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : قال الله تعالى : و من أظلم ممن ذهب يخلق كخلق . فليخلقوا ذرة ، أو ليخلقوا حبة أو شعيرة .

تأذى النبي ﷺ بالغلو فى شخصه ،
و الزيادة على ما وصفه الله به :

و أخرج رزين عن أنس قال قال رسول الله ﷺ : إنى لا أريد أن ترفعونى فوق المنزلة التى أنزلنيها الله تعالى ، أنا محمد بن عبد الله و رسوله .

و معنى ذلك أن النبي ﷺ لا يسره أن يبـالغ فيـه الناس و يطروه شأن الأمراء و الملوك الذين يحبون المبالغة و الملق ، فانهم لا شأن لهم بدين هؤلاء الندماء و الشعراء ، و اعتقـادهم ، فلا عليهم إذا فسدت عقيدتهم ، أو باؤا بالاثم ، أما النبي ﷺ فقد كان مربياً عطوفاً على أمته : «عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم (١)» و كانت عنايته مصروفة إلى إصلاح

(١) سورة التوبة ١٢٨ .

عقيدتهم و تقويم دينهم (١) .

و قد جرت العادة أن المحبين يبالغون فى مدح من يحبونهم ، و يسرفون فى ذلك لينالوا رضاهم ، و يدخلوا السرور عليهم ، وقد عرف النبي ﷺ أن أمته من أشد الأمم حباً لنبيها ، وامتناناً له ، ومعرفة لفضله ، و قد خاف أن تبالغ أمته فى مدحه بدافع هذا الحب فتتخطى الحدود و تسيئ الأدب مع الله أحياناً، فيتلف بذلك دينها و تهلك ، و تعادى النبي و تؤذيه ، لذلك صرح بأنه لا يرضى بالمبالغة و الغلو ، و أن اسمه ما سماه به أهله ، و ناداه به ربه ، ليست له من أسماء الله كالخالق و الرازق شئ ، و أنه ولد كما يولد سائر الناس من أب و أم ، و حسبه فخراً أن يكون عبداً لله، ولكنه يمتاز عن سائر عبادالله بعلم أحكام الله ومرضاته ، والناس عنها فى جهل وغفلة ، لاسبيل لهم إليها إلا عن طريقه ، فليرجعوا إليه و يلوذوا به فى تعلم دين الله ، و فى معرفة أحكامه و شرائعه .

اللهم فصل و سلم ألف صلاة ، وألف تسليم على هذا النبي الرحيم الكريم ، فأجزه عنا على جهاده فى تعليم الدين ، وإخراج

---

(١) قال الله تعالى : « لعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا (سورة الكهف) .

الناس من الظلمات إلى النور ، أفضل ما تجزى نبياً عن أمتـــه ، و كافئه على ذلك أحسن مكافأة ، فأنت تقـدر على ذلك ، و لا نقدر ، و تعلم عظيم امتنانه و جسيم إحسانه على أمته ، ولا يبلغه علمنا ، و لا يستوفيه شكرنا .

و « الحمد لله الذى هدانا لهذا و ما كنا لنهتدى لو لا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق » .

✿ ✿ ✿

الفهرس

الموضوع | الصفحة

الفصل الأول في التحذير عن الشرك

الفصل الثانى فى رد الاشراك فى العلم

الموضوع	الصفحة

الفصل الثالث فى رد الاشراك فى التصرف

الموضوع	الصفحة
شرع ما لم يشرع ، و التزام ما لا يلزم	١٢٥
اعتقاد التأثير فى الأنواء والكواكب فى العالم، إشراك بالله	١٢٩
الاعتماد على العرافة والكهانة، والمخبرين بالمغيبات كفر وجبت	١٣٠
مظاهر ضعف الاعتقاد و السخافـــة فى	
أهل الجاهلية ، و مقلديهم من المسلمين	١٣٢
كل كلمة تدل على الجهل بالله و إساءة	
الأدب معـــه لا يحل السكوت عليهـــا	١٣٧
الحث على إظهار شعار التوحيد فى الأسماء ،	
و التحذير من الكلام الموهم	١٤٣
الحلف لغير الله إشراك بالله	١٤٧
لا يجوز النذر لغير الله و الذبح فى مكان	
كان فيه وثن ، أو عيد من أعياد الجاهلية	» »
النهى عن الافراط و التفريط فى تعظيم النبى ﷺ	١٤٨
التحذير عن الكلمات الموهمة للشرك	١٥١
النهى عن تقليد النصارى فى إطرائهم لنبيهم ، وغلوهم فيه	١٥٢
النهى عن تعظيم صور الصالحين	١٥٦
تأذى النبى ﷺ بالغلو فى شخصه، والزيادة على ماوصفه الله به	١٥٨